الفصل الثاني

القيم والمثل في ديوان الإلوري

المدخل :

حوى ديوان الإلوري نماذج عليا من قصائد جيدة ، ترتقي قوتها إلى أنماط عليا تغدو فرائد تضرب حكماً وأمثالا في مواقف متشابهة للسمو الروحي ، والرقي الخلقي ، ولم تشذ قصيدة من قصائده إلا ونوّهت بالمثل ، ذلك بأن الحياة الأدبية الحقّة تحيي في ذاكرة الأدباء المحسنين المخلصين حياة حافلة بجميع الأنشطة الإنسانية ، ولا يبرحون ساعة ولا لمحة إلا نفذت فيهم ، وعبّروا عنها تعبيرا قويا .

على أن ما توحي به لك القصائد بفرائدها السائرة التي تصور غاية من الغايات الخلقية لا تستقيم حقائقها إلا إذا نبعت من مآثر قدسية عندما ينظر الأديب إلى واقع الحياة عبر تجارب وخبرات اكتسبها من معتقداته ومقدساته ، ليدوّنها مواكبة لمسيرة الحياة الخالدة ، ولا يعني ذلك أن الديوان كله قد تحول إلى قضايا تهذيبية ، وقواعد سلوكية في صورتها المباشرة مكشوفة كل الكشف دون اهتمام بالغ باعتبارات فنية تهب النص حياة ونبضة ، بل المقصود هنا ؛ أن يلبي مقاصد جليلة لبناء المجتمع الفاضل الذي تستقر به السعادة الإنسانية ، بناء يتوقف على ترسيخ الأهداف العظيمة في نفوس الأفراد والجماعات ، وذلك سرّ تفاوت بعضها على بعض في أداء السلوك نظراً لاختلاف الأغراض التي سيقت لأجلها ، وإن كانت تتلاقى جميعا في بناء مثل وقيم .

مناصرة الفضائل :

تنهض ميمية الإلوري قيمة الفضائل ، وعظمة الخلال الحميدة التي ينادي بها الأدب الإسلامي ، وتتجلى تلك فيما أبدعه مرثية لشيخه وسميّه آدم نمآج ابن محمد العربي بن آدم الكنوي الفندكي ، وليست لتجلية فضائل يتجاهلها الناس عن مناقب مكانة المرثي فقط ، بل لتقرر حقائق ينكرها الحساد ، ويستخف بها هواة التحديث حين حدتهم الحضارة إلى ازدراء كل قديم ، وفي الوقت نفسه تنبئ عمّا للشّاعر من تقدير العلم ، وتوقير أهله ، وحسن الحياء لهم والدفاع عن أعراضهم ، وعلى الأديب في النهج الإسلامي الجليل أن يقوّم ذلك تقويماً عادلا ، لأن علاقة العلماء البارعين بتلامذتهم النابغين ، لا تشوبها خيانة ، بل تظل غاية عظمى من الصفاء ، والحرمة ، والرحمة ، والعطف ، يتبادلها كلا الطرفين ، ومن جانب المربي ؛ فإنه يؤمن بأن بذل العلم أمانة الله اصطفى لحملها نخبا من عباده إلى من يحتاجون إليها بسخاء مدرار مخلصين لرب العالمين ، لا يغريهم ولا يثنيهم أجر ولا ثواب إلا ما جاء منه ـ جلت نعمته ـ وهو الذي يتولاهم بالمثوبة الحسنى ، وبهذا العزم القوي تترسخ قواعد الحياة العلمية الكريمة التي خلق الله الإنسان لإقامتها في الأرض ، وعلى مدارها يتعاقب جيل تلو آخر علماء ، وأئمة ، وأدباء ، ومن قبل التلميذ فإنه يؤمن إيماناً جازماً بأنه مهما كان عالي المكانة والمنزلة ؛ فإن أستاذه أفضل منه ، وليس له ما يكافئه بجميله إلا حسن توقيره بالكلام الطيب ، وأخلده ذكراً فن القول البديع لنسج خير الدعاء ، وعلى هذا الفهم العميق ضرب شاعرنا قيثاره ، وقال :

همومي هاجها نوح الحمام	وحزني عاق عن أكل الطعام
فما أدري يميني من شمالي	على ما غار من أمر الحمام
لموت نماج يا أسفي عليه	ويا حزني وهمّي بالالتزام
فما لي لا أنوح ولا أرثي	على فقد المربي للأنام

سيبكي كلّ من يدريه حقًّا | بهذي الأرض من كل الهمام
سيبكي كل أهل العلم طرا | على فقد الطوالع كل عام
طويل كامل هادي البرايا | كثير الخير مصباح الظلام
مليح الوجه والممشي الهوينا | بريق السن عند الابتسام
نقي القلب ذو رأي سديد | سخي الكف معتدل القيام
لقد مات الحكيم الفيلسوف | بكل علومه وافي المرام
أيا أعداءه قد مات عنكم | فحيوا لا تموتوا بالدوام
ألما مات أنتم خالدون | فكل النفس ذائقة الحمام
أيا شيخي وأستاذي نماج | رعاك الله في دار السّلام
لقد أخرجني من غمر جهل | جزاك الله خيرا يا إمام
جهلت بما يوافي المدح مني | سوى الدعوات تذكر بانتظام[1].

توضح القصيدة أن الإلوري قد استهدف مغزى جليلاً في إبداع المرثية قولاً جميلاً، ومزية كريمة لنعوت أستاذه، وقد قدر فيه شأن العلم تقدير تلميذ متواضع لله ثم لصانع المعروف؛ إذ يعتقد لراحله فضلا كبيراً عليه، ألا يبهرك منه هذا الخلق روعة؟ وهو ذاته على منزلة رفيعة دانت له رقاب العلماء، ونفر إليه جبابرة زمانه من ملوك البلاد، وأمرائها، وأثريائها مستفتين ومهتدين، وآثر إليه الهجرة الوافدون من طلاب وباحثين، وكان بهذا يدين لشيخه بفضل السبق والتقدمة في العلم، وبذله للمحتاجين دون ضنّ ولا منّ.

والمؤكد، أن تلك المعاني التي ساقها رثاءً لنماج تدق وتعظم في عالم الفن، إذ يراعي فيها اتجاهات الأدباء والنقاد في المراثي الجيدة، ولم يخرج عن إطارها المنصف إلى الإسعاف والإسراف في التهالك على الأحزان والهموم،

(1) الإلوري، لقطات، من أشعار الإلوري.

فقد بكاه وكاد الحزن على فقيده يعوقه عن قوام الحياة ، وأن اللوعة أوشكت أن تفقده وعي ما يدور في حواسه ، فهو بكاء صادق لا تمويه فيه ولا فجور ولا فسوق ، بل انبعث من عاطفة صادقة إخلاصاً للراحل الذي وضع سقوطه غوراً عميقاً في نفس محبه ، ووفاء لصانع المعروف الذي يعجز المصنوع له عن مكافأته ، وتفجر من لسانه ما يخلد له ذكره وبقاءه عندما درج إلى دار الخلد ثناء عليه ، وتقديراً له ، وتعبيراً خالداً من قبل التلميذ المخلص لأستاذه اللبق حزن ، وثق بعلمه ، ومروءته ، وأمانته ، ودماثته .

ثم نفذ إلى التأبين لتعداد مناقبه ، وما تحلى به من الصفات الحميدة معنوية وحسية كنقاء العلم ، وسداد الرأي ، وصفاء القلب ، والجود ، والتحلي بما هو جميل ، يغري بالانتفاع كطول القامة ، والرجولة ، والشهامة ، والوسامة إلى جانب ماله من عزة ، وصناعة ، ورشد ، وسبق على الأقران والخلان مع التواضع 'لكريم ، وأخيراً هدته القدرة العقلية إلى ذكر فلسفة الحياة ، وأخذ الاعتبار بعواملها في البقاء والفناء ، بأن ليس الموت مدعاة إشمات حي رحل فيتباهى ، ويتفاخر ، ويتكاثر على بقائه وفناء غيره ، والأجل يحل بكل كائن ، وهو حقيقة واقعة لا ريب فيها ، ولا تردها حيلة ولا مكيدة ، ومن السخافة أن يعتقد الخصم أن وفاة منافسه خلود وبقاء له في الحياة ، وذلك مستحيل وكل نفس ذائقة الموت ، وكل موجود لا محالة عائد إلى حيث نشأ إلا الموجود المطلق ـ جل جلاله ـ ، ومن ثَمَّ نلقى المرثية متميزة بالقوة و لرصانة ، فنقلت إلى نفوس السامعين آلاماً وأحزاناً تدفع كل من يدريه إلى ذرف الدموع ، لأن آثاره باقية لا تزال تثير الهموم ، وإذا جمدت عيون فئة أو أمسكت عن الدموع إشماتاً وهزءا ؛ فإن صدورهم مليئة بالكآبة والرزء ، لأن وفاة العالم خسارة فادحة .

والشاعر بارع مبدع إذ زاوج بين الصفات المعنوية الحسية ، وبهذا نراه قد خرج عن الرسوم التي قررها قدامة بن جعفر في أن تكون المرثية من الفضائل

النفسية ، وهو موقف عارضه فيه النقاد بشدة ، وما دام الإنسان متكوّنا من روح وجسد أو مادة ومعنى ؛ فلا بأس أن يجمع عند الوصف بين الأمرين ، ومدار الحياة لا يقف عند أحدهما ، ومن ثَمَّ كان يليق بالشاعر أن يصور الناحية التي برز فيها المرثي من كلتيهما بروزاً واضحاً ، لأنها قد ملكت أقطار قلبه دون غيرها ، وبهذه الرؤية تتضح في هذه القصيدة فكرة القيم والأخلاق التي يمكن أن نعبر عنها بالصدق الفني غاية من غايات الأدب الإسلامي ، فقد عدد صاحبها مناقب شيخه ، ومحامده أبرزها العلم والجود به ، والعفة في أعراض الناس ، والاعتداد بعزة العلماء ، وهو لا يقصد بمرثيته طلب منحة مانح ، ولا يخشى لومة لائم ، وإنما دفعه اعتراف جميل بالعلم الكريم ، وتقدير شأنه وإنصاف أهله حين أهمله الزمان في زوايا النسيان ، ولم يظفر من معاصريه طلابا وأساتذة إلا ما يمسّ عرضه ومروءته ، بل يغمزون المدح بالقدح إلا في الآونة الأخيرة[1] .

ومن أكبر عوامل العداوة والبغض أن المرحوم دعم علمه بالتفاتات جميلة إلى ما صفا من موروثات الأوائل من أفكار وفلسفات ، ومعارف ، وقد أشار إليها بقوله :

لقد مات الحكيم الفيلسوف   بكل علومه وافي المرام

وحقاً اقترب الفقيد إلى هذه الظواهر العلمية من تاريخ جغرافي ، وطب ، وتجارة ، وفلك ، وتنجيم ، وغيرها من فروع الفلسفة التي أثرى بها مكتبتنا الحديثة غير أن معاصريه لم يعرفُوا لها قيمة إنسانية من مغزى علمي أو فكري غير نظر سطحي لاتخاذ موقف سلبي ، إلا قليلا منهم من عدّ تقديره[2].

---

(1) غير طرف كتبه الأستاذ يعقوب ، عن حياته عند حديثه ضمن أعلام الأدب العربي بكنو ، ثم الأخ إلياس في بحث التخرج ، واعتزامه الإلوري فاعترضه الأجل المحتوم.

(2) ومن أولئك الأستاذ الدكتور الإمام زهر الدين منحه دكتوراه الطب التقليدي في إحدى حفلات التخرج .

والواقع ؛ أن حالة المسلمين من خمول وركود وهبوط كفت أن تلهمه عناية الله هذه المعارف الجليلة وإعادة صياغتها وبلورتها بروح عقلية عميقة ، تواكب روح الحياة المعاصرة على سنن يتواضع لها المؤمنون في اكتساب العلوم ، ولا يزال باب الاجتهاد لدى أئمة المسلمين يرحب بكل ظاهرة من التيارات الفكرية المتجدّدة ما دامت تتجاوب مع الذوق الإسلامي ، ولا يقف المسلمون مكتوفي الأيدي وحولهم أبناء النحل يتقدمون تقدماً هائلاً في ضروب الفكر ، والحضارة والفن .

ولعل هؤلاء المعارضين يقدرون في نماج عظمة همته بالثقافة الإسلامية حين بين مرونتها وقدرتها على العطاء الدائم الخالد ، باذلاً وسعه لإزالة عوائق الاستعمار عن طرق المسلمين في اكتساب هذه المعارف المفيدة لواقعهم .

ومن أهم أسباب كثرة هؤلاء الحساد أن الفقيد يمثل عنصراً متميزاً من الأفذاذ الذين أثبتُوا قدرة المعاهد والجوامع القديمة وفاعليتها بين الجامعات الحديثة إذ تلقى علومه على الدهاليز والسواري ، وكان معدودً بين ذوي الذروة العليا في النبوغ والنباهة ما أعجز المؤسسات المعاصرة الثرية أن تنجب من أمثالهم .

وثمّة علّة أخرى في تكالب الشامتين عليه ، وهي أنه جعل أبواب العلم مفتوحة على مصراعيها للراغبين في عصر ظل الاحتكار عادة شائعة مباحة ، وكل من يخرج على هذا السلوك فقد عرض نفسه لعادة شرسة ، ولم يزل الفقيد ممن رصدُوا أوقاتهم وبيوتهم معاهد ، ومكتبات ، وزوايا تعقد فيها حلقات العلوم ، والمعارف ، وموئل الأبحاث ، والنكات ، ونتيجة ذلك أسخطت الأعداء مواقفه ، ونالُوا منه ما لا ينبغي أن ينالُوا من الجهال والغمر ، ولم يزل الحال حتى بعد مماته ، ومن ثَمَّ يجب الوقوف بجانبه انتصاراً له وذوداً عنه لا لحرمته وحده بل للعلم ، والأدب ، والإنسانية .

ومن أقوى العلل أنه ـ رحمة الله عليه ـ وقف وصلة عظيمة بين قبائل مسلمة متناحرة على الصراع الديني والسياسي والاجتماعي ، فاتخذ من كتاباته ثغرة ينفذ منها إلى لمّ الشعث ، واقترب إلى كل عنصر ليعرف ما له من ثقافات وحضارات يتميز بها عن غيره ، إذ تجب ضرورة اقتنائها واختزانها ، ولا يمكن الاستغناء عنها في مواكب الحياة ، فأتى ذلك ثمرة من دماثته الخلقية من خفة روح وارتياح ضمير ، وأصبح منهجه أكثر شمولاً وفاعلية ، وتكون تلامذته من قبائل متعددة بريئة من العصبية والقبلية ، متفطنين إلى واقع المسلمين لبث روح الصحوة المجيدة فيهم ، ليس مقصوراً على أبناء الفقراء فقط ، بل شمل ذراري أمرائهم وأعيانهم وسلاطينهم ، فنبغُوا جميعاً وهُم ينتمُون إلى أعراق متباينة تشدهم وحدة الهدف متخصصين في قضايا الدعوة إلى الله بالوفاء ، والأمانة ، والصدق[1] .

والحق أن هؤلاء المعارضين لم يفقهُوا تلك الرسائل العلمية الزاهية التي أصبحت اليوم على أيدي تلامذته تشرق على المراكز والمعاهد أنواراً في كل جهات ومناكب ، فغدا الطلاب يغشونها ويترددون إليها ، ويشبعون بها نهمهم ، فتلاشت نيران الاحتكار التي يصطلي بها العلماء تلامذتهم عهدئذ ، ومن ثَمّ ؛ فإن عزاء التلميذ في أستاذه كان له مبرر ، بل إنه من أبر الأخلاق اعترافا بجميل صانع الخير ، ودفاعا عن حرمته ، لأن انتصار العلم وتأييد صاحبه من مواطن الوقوف الحق الذي أمر الله به عباده الأدباء الإسلاميين ، وأكد الرسول ﷺ التمسك به إحياء لسنّته ، وجهاداً في سبيله ، وإذا أهين العلم ، واختفى وتوارى عن وجه السّداد والصواب ؛ انطبق على الناس الظلام جميعاً ، وعمتهم البلوى ، وحلّ الضلال محلّ الهدى ، وساءت البلاد ، وهلك الأنام .

---

(1) وآية ذلك ؛ أن أبا بكر رمضان نفاوي ، وأبا بكر مي سكيل هوسوي ، والكبري ملوي ، ووزير كنو فلاني ، والإلوري يوربوي.

وربما يتنعت المتنعّتون بأن الشاعر قد بالغ في نعوت شيخه ، وصنع أسلوب مرثيته تصنيعا يكاد يخرجه عن العرف الإسلامي في بناء القول الجميل خصوصا فيما يقول :

أيا شيخي وأستاذي نماج رعاك الله في دار السلام

لقد أخرجتني من غمر جهل جزاك الله خيرا يا إمام

ونحن بصدد الحديث عن المنهج الذي ينهى عن إطراء المدح عدالة وإنصافاً ، وأنه قد اختلف إلى حلقات شيوخ آخرين قبل نماج وبعده ، وأنه واثق بعلومهم حتى عندما جاء عهد النبوغ والنباهة ، لم يزل على ثقته الكبيرة بما تلقى منهم . فالواقع ، أن فقيده كثر عليه التجهيل ، ولم ينل أحداً من سخافة القول ما ناله من الشيوخ الذين أهينت كرامتهم ، فرأى تلميذه أن وفاته فرصة يعدل فيها القول لا لذكر مناقبه ومحاسنه فقط ، بل للذب عنه وإنصافه .

ومن الملحوظ أن الإلوري يكنّ ولاء صادقا لجميع مشائخه طيلة عمره ، ولم يكن يهدر حقوق أحد منهم ، بل ظل يحافظ على تقوية صلاته بهم وبذويهم زائراً ومتفقداً لأحوالهم ، ومصلحا لأوضاعهم ، وكثيراً ما يستقدم بعضهم في مناسبات علمية لتكريمهم ، ويقابل على بعضهم عروض كتبه المسودة ليبدوا ملاحظات ينتفع بها ، وفي تقاريظ كتبه شواهد حية على حسن اعترافه بجميلهم .

ودليل آخر على تقديره للعلم وأهله ، وأنه لم يؤثر من تلقى منهم وحدهم بالتوقير وحسن المعاملة ، بل شمل جميع من سبقوه ، ومن أولئك الشيوخ أحمد أويلنجي ، وأحمد صلاتي ، وكمال الدين الأدبي ، وسلمان أكي ، وبشر ابن محمد بلو ، يكفي ذلك كله دلالة قوية تقطع ألسنة الشكوك في تبجيل من لم يتعلّم منه بدون تعصب ولا تحزب فضلا عما كانُوا أساتذته ، وإلا فإن مصنفاته تغدو منارة يشع منها نور البحث والإحياء للآثار العلمية ، وتبقى شواهد قويّة على تقديره للعلماء بصرف النظر عن أعراقهم وبيئاتهم ، وفي ذلك يقول :

« ولقد اعتنيت بدراسة تاريخ الوطن لذكر أسماء البلاد الكبيرة وتأسيسها ، وتاريخ الإسلام في كل بلد على النحو الذي لا بأس به بالنسبة للمحيط والبيئة ، وكذلك اهتممت بالبحث عن آثار العلم والعلماء في كل بلد من تلك البلاد ، فالبحث عن آثار العلماء ومخلفاتهم يعتبر جهاداً وتعليما في خاصة الكتب »[1].

ومن يقرأ كتبه : « الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي » ، و« نظام التعليم العربي في العالم الإسلامي » ، و« موجز تاريخ نيجيريا » ، و« لمحات البلور في مشاهير علماء إلور » ، و« الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى بنيجيريا » ، و« أصل قبائل يوربا » ، و« نسيم الصبا في أخبار الإسلام وعلماء يوربا » ، و« مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيريّة » ، و« توجيه الدّعوة والدّعاة » فلا يهوله ما قام به من جهود مضنية لكشف النقاب عن الغياهب المظلمة من تاريخ العلم والعلماء في هذه البلاد تعظيما لأقدارهم ، لاسيما تنويهه السديد بهم خلال الحلقات الدينية والعلمية وغير ذلك مما غدا على يديه مفخرة عظيمة يباهي بها أدعياء المجد من هواة العرب .

وواضح ، أن مرثيته لشيخه كانت إنصافا حكيما إذ أخمله الناس ولم يكونُوا يذكرونه إلا تجهيلاً له وتجنيا عليه ، فدفعت الإلوري العاطفة العلمية وهي أقدس أمثالها التي تقوم على الجاه والعرف والسلطة ، وتقيس الموازين بالعشوائية الممقوتة ، وأولى الانفعال ما ينبعث لإنقاذ المنكوبين ، وإغاثة الغرقى في يتم النسيان ، وهم على سداد مواقفهم ، وعدالة خطاهم وإلا فإن الإنسانية إذا لم توحّدهم المشاعر والشعائر التي أساسها العلم ، والدين ، والحق ، فليس لها مفهوم دقيق ولا رؤية ثاقبة ، وبناء على ذلك فإن نماج لم يقلّ همة وعناية ونشاطا عمّن أُطروا ولا يزال الزمان يطريهم إطراء فاحشاً في أمداحهم :

---

(1) الإلوري ، مقدمة مصباح الدراسات الأدبية ، ص: ٢.

أنه كان معدودا في عشيرته الشهيرة بإحياء الطريقة القادرية ، وأنه من المنجمين ظناً منهم بأن الفلسفة والفلك ، والجغرافية وسائر ما تعطاه من ضروب العلوم الاجتماعية كانت لديهم مروقا على الدين ، وإذا تحقّق لنماج ذلك إحياء وذكرى ، فقد أنصف الحقّ ، وانتصر ؛ فنعم الناصر ونعم المنصور!

أما عاطفته ، فقد عظمت عظمة بالغة بالتنويه والنبل ، فقد صاغ بها المرثية صياغة بديعة أتت قوّة فنيّة غير بديهة ، ويأنفها الدارسون عند توزيع العناصر إلى الندبة والتأبين وفلسفة الحياة ، ذلك ما يعرف بالبداهة ، والابتداء ، ولكن العباقرة الأدباء تشدّهم قدرة المهارة إلى حمل المخاطبين على ما لا يعرف إلا بالندارة ، وتجميع الطاقات العقلية على التفقّه حتى يؤتوا للذوق قدرة وهمّة واعتناءً ، وبذلك يحظى الناس بالخلود والبقاء ، إذ أودع فيه صاحبه ما يشير إلى سبك زمانه ، وإن الأجيال القادمين سيلقونه ضالتهم ونشدانهم ، وعلى ذلك ما يتنافس عليه المهرة من الأدباء والنقاد ، ويعدونه مواطن أصالتهم ، وخاصة تجربتهم . ومن ثَمّ فإن الموقف يطرح سؤالاً صارخا : أسهو ذلك أم إخمال؟ والجواب ؛ أن كل ذلك لم يكن لما عرف من نباهة قوية يتحلى بها الشاعر ، إلاّ أنه اختار موطناً آخر يراه أكثر مناسبة ، وأدقّ وجهاً ، ذلك بأن فقدان نماج كفى عبرة ونصيحة على الصورة الإجمالية التي يحصل بها الإقناع ، لأن توافد الطلاب على داره وتزاحم ركاب المريدين على زاويته ، وتعاقب المستفتين على مغناه قد آب جميعاً إلى العطلان ، كل ذلك آيات قويّة ألهموا بمستلهمين على أقوى ذاكرة وحافظة وأولى به عبارة أوجز وأقلّ أداءً . ولكن الندبة والتأبين أولى بإمداد سلسلة من فلسفة الحياة ونوعيّتها ، ومراتبها وعواقبها ، ومثلها كل ذلك قد وفى الشاعر بغرضه .

إنّ الناس يعلمون حق العلم بقضاء الموت المحتوم ولكنهم ـ حق الجهل ـ ساعته على الأجل المعلوم الذي لا يزيد ولا ينقص ، وقد استأثره الله عنده .

وكما أن العيون ، وإطلاق العويل ، وسرح عنان الهمّ والكآبة ، وتشديد الألم ، والفجيعة ؛ كانوا يتفاوتون في تصويرها وتفسيرها ، بما يلقى مبررا وعلة

قاطعة ، بل يسرفون في القول على متاهات وجدانياً ، فضرب الإلوري قيثاره للإثبات أن الهموم التي ساورته ، والأحزان التي احتدقت به ، وسيطرت سيطرة قاتلة تحمل حججاً وبراهين في نماج ، لأن سقوطه دمار للعلم ، والتذكر والتأليف ، والإبداع ، والفتوى . فقد كانت تلك الحقائق الإنسانية إذ استجدت على البكاء والخمول ذكرها ، وتناسي الناس لها ، فأحرى بالإنسان الذي يتحلى بها ؛ أن يزداد بكاءً وعويلاً . وإن البكاء شفاء وبراءة وجلاء لما يقاسيه الإنسان ، وهو قاهر له جبّار مارد عليه ، فيتخفّف بلواه وتضمحلّ شكواه ، وكما أن الأحزان الكبرى لا تنزل عادة إلا على عظائم الرّجال حتّى لا تقصم ظواهر من دونه ، وكما أن الأودية الثكلى عندما تسيل فتحرّك يمنة ويسرى لتوقّع نزلتها وقرارها لا تتمكّن إلا سفوح الرواسي الرزينة .

تلك النتائج المتراكبة بما لها من الأسباب خفاياها ، والعلل أستارها ، والعوامل متضافرتها تحتاج قطعا إلى بسط القول وإجراء الفلسفة العميقة ، وهي التي لا تتردّد العقول في قبولها ، ولا تنحاز النفوس في الانتماء إليها ، ولا تتآبى الصدور في انشراحها .

تلك الغاية الكبرى من البرهان ؛ أن العلم النافع إذا ثبت حجّة دالة على خلود المرء ، وبقاء ذكره ، فإن نماج علاّمة عصره قد أدّى دوره الوجيه ، ولا غرو أن ينطق الناس بمناقبه ، فأحرى بتلامذته وطلابه وأتباعه أن يضربوا قيثارهم على أمداحه ، فإذا كان الإلوري أبرزهم إبداعا وذوقا ؛ كان حقاً عليه أن يتقدّم صفوفهم ، وذلك أن سلفهم كلمة باقية في العقب ، وأثارة تغدو منارة تشع للأجيال المقدمين كيف يقيمون حياتهم على أروع ماضيهم لواقعهم وقابلهم .

وكما تمتاز فكرة القصيدة ببيان القيم والمثل ؛ فإن أسلوبها كان يزف إلينا حللا فاخرة من أشكال فنية رائعة تثري المعنى وتجلّه ، وما دامت العاطفة عميقة خالدة تتصل بقضايا إنسانية ؛ وتتفاعل مع مجرى الحياة فلا بد أن

تستدعي تعبيراً قويا عن الدقة والقوّة ، وصورة محكّمة من بدائع الخيال ، وما دامت دقة أسلوبه تنم عن قوة مشاعره ؛ فلا بد أن يقوي الوجدان ، وأن تساوق ألفاظ الفكرة مشعة الصورة يستحيل الاستغناء عنها أو تغييرها من سياقها ، ففي التعبير بـ« هاج » للدلالة على كثرة الأحزان والهموم ، وما يكنفها من قوة وحركة وتموج ، ومنها اختيار « عاق » وهو يفيد إلى جانب المنع اضطراب الأمور واستياء الأحوال وتموّج الأهوال ، إذ كانت مادته مكونة من حروف متنافرة توجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها ، وهي لا تخل بالفصاحة إذ تناسب المقام لما تحمله من إيحاءات عن تقلبات الأوضاع واختلال الأمور ، وعدم الانسجام بين النفوس وأجسامها ، والأرواح مع أشباحها في ظروفها ، وملابساتها ، وتشد الشاعر الطرافة والدقة إلى تلمس الوجوه والخصائص عند « نوح » لما فيها من تلاؤم شديد لمعناها وسياقها ، وحسن إضافتها إلى « الحمام » لأداء معنى قوة العاطفة واستمرارها ، ورقة الإحساس بها ، ومن ذلك كلمة « هناك الله » فقد أعلت الهمزة ثم أبدلت ألفاً مقصورة للدلالة على التيسير لتطابق معناها في الهنا ولا تنبو ولا تقسو .

وأحياناً أخرى ينبع إيثار المفردات على نظائرها من وحي المبالغة الحميدة لأداء المعاني ، كما نرى الشاعر أكثر استعمالاً للصفة المشبهة في « مليح الوجه » ، و« كثير الخير » ، و« بريق السن » ، و« نقي القلب » ، و« سخي الكف » ، و« معتدل القيام » للدلالة على قوّة التلازم بين هذه الصفات وبين موصوفها حتى تنتقل إلى العلمية شهرة وإشاعة تقطع نسبتها إلى غيرها على سبيل الادعاء والتجوز ، وتهديه قوة التوليد في البيان إلى استعمال بديع لكلمة « الفيلسوف » بطرافة ورونق اقتضاه القاموس الأدبي على مجرى التجديد في مظاهر الحياة وروافد العمران والتحديث ، لأن الكلمة عند النقّاد القدامى غريبة غير مأنوسة ، وأجنبية نابية غير مألوفة تضيق في ذوق الأدباء ، وتتسع دائرتها في البحوث العلمية لدى المفكرين والمناطقة ، إلا أنها اليوم أصبحت ضرورة

الحياة متداولة بحكم الاحتكاك البشري ، فخلع الشاعر عليها رونقاً وطرافة من لباقته ومرونته .

ويدفعه غرض التنويع في المفردات لإثراء الأفكار ، وكثرة الحقائق ، وكراهة الترادف في كلمات «الشيخ» و«الأستاذ» و«الإمام» إقراراً للفروق الدقيقة بينها على سنة اللسانيين الفقهاء من ذوي الذوق والبيان ، في قوله :

أيا «شيخي« و«أستاذي» نماج رعاك الله في دار السلام

لقد أخرجتني من غمر جهل جزاك الله خيراً يا «إمام»

فإذا لقبه بالمشيخة فهو تعبير صادق لأنه تقدّمه سناً وعلماً على السلوك الطلبي ، وثبت أنه جعله خاتم مطاف علمه في الوطن ، وأنه جدد البيعة القادرية على يديه ، وحين نعته بالأستاذية فهو ثبته المفضل الذي أشرف على بناء أسلوبه ، وصقّل لسانه ، ومرّنه على النطق لإزالة حواجز وموانع تحبس ألسنة غيره عن الطلاقة في العربية إلا نوابغ وعباقرة ، وكان ـ رحمه الله ـ ممن تنبّهوا في هذا الموقف ، فدرب لسانه على يدي العرب المغتربين إليهم إذ كان عمه سالم ممن يأوي إليهم هؤلاء العلماء ، وتيقّنوا أن تكملة مهماتهم أن يأخذوا بأيدي طلابهم مبكرين للمضي بهم في مجال الفصاحة ، أضف إلى ذلك أن نماج من العلماء المتفقهين في حقيقة الزهد المستقيم البريء من الدنس والوسخ ، واختاروا الطيب مما أباحه الله في مناهج العيش تحدثاً بنعمة الله ، فارتفع التعليم العربي الإسلامي من الحضيض إلى الرقي خلال العهد الاستعماري الذي صور هذه الثقافة الإسلامية وأهلها تصويراً بشعاً ازدراء واحتقاراً ، وفي وصفه بالإمامة فهو قدوته في التأليف ، والتصنيف ، والإبداع ، ولم يزل يتمثله ويقابله على مؤلفاته قبل قدومه إلى البلاد العربية عام ١٩٤٨م.

وكما جدّ الشاعر في المفردات كان له اهتمام بالغ بالتراكيب لتكون أوعية المعاني ، والأغراض التي يقصدها في نفسه حتى يتلقاها المخاطب على صورة

تحيزت في صدره ، وأول ما يطالعك في ذلك استهلال كلامه بجملة الاشتغال لقصد التأكيد وتقوية المعنى حيث يقول :

همومي هاجها نوح الحمام ودمعي عاق عن أكل الطعام

وذلك بأن ما ألمّ به قد شغل قلبه ووعيه ، وأورثه الإعراض عما سواه ، ولا بأس أن يعبر بجملة الاشتغال لثبات العاطفة في الفقيد ودوامها ، فقد ترك من الآثار ما لا يمكن جهله ، ولا ينبغي أن ينتهي إليه المراء ، وما دامت العاطفة خالدة في النفوس ؛ فإن التفجع على موته والتألم له والحزن عليه دائم ، وثابت ، وشاغل القلب والنفس والوعي ، وأي عارض طرأ على عوامل نمو الجسم يجل قطعاً وقوعه بالروح ، إذ فقدت تغذيتها وإمدادها لموت مربيها ومزكيها بالعلم ، والمعرفة ، والعقل ، وأحياناً أخرى يؤثر الشاعر الجملة الفعلية لتنديد الأعداء في قوله :

سيبكي كل أهل العلم طرا على فقد الطوالع كل عام

تدرجاً بالمخاطب وملاطفة به في تنديده وإنذاره لعله يكف ويردع عن الإشمات والهزء بموت الفقيد ، ويتألم ويحزن عليه ، ثم عاد إلى الخبر الإنكاري للتأكيد بالتكرار ، لأن أمارة السّؤال ظلّت على عدمِ الاقتناع ، وقوى اللجوج والمكابرة ما زالت قائمة فلا بدّ من اصطناع أسلوب أشد من ذي قبل ، ونلمس قوله :

لقد مات الحكيم الفيلسوف بكل علومه وافي المرام

فقد كثرت فيه الشكوك والريب ، ولم يزل الناس يترددون في صحّة علمه ، ومنهم من طرده من حظيرة الإسلام ، وجهله الآخرون ولم يعرفُوا منه إلا التنجيم لما يتعاطاه ضمن فروع الفلسفة من فلك ، ومنطق ، وجغرافيا ، وقد يعبر عنه بالخبر عن الانتقام ورد الفعل على الندّ :

سيبكي كل من يدريه حقا بهذي الأرض من هذا الهمام

تهكّما وتبكيتا للذين يسخرون منه ويشمتون به على فقيده حيث لم تذرف الدموع عيونهم جهلاً بمكانته ، ولكن هذا لا يقلّل من شأنه ، ولا يحط من كرامته ، فمن يدرون قيمته وما كان ينفقه من كنوز العلم يتحسّرون عليه لوعة وندامة .

وتسمو به روح الملحمة والبطولة عندما يؤكّد تنديده لأعدائه مؤثراً الأسلوب الإنشائي في جملة من الصيغ الآتية :

أيا أعداءه قد مات عنكم فحيّوا لا تموتُوا بالدّوام

ألما مات أنتم خالدون فكل النفس ذائقة الحمام

ألا ترى عظمة الترتيب ودقة النسق حين قدم النداء لتهيئة النفس ، لأن إيقاع نداء البعيد للقريب لم يحسن إلا لنأيهم عن مناط الصواب والرشاد تعريضا بهم إذ هم سيلقون ما لقي الفقيد ، وأنهم حقاً سيرحلون حيث رحل ، ثم والاه صيغة الأمر والنهي ، لأنه نقطة الارتكاز وفحوى الكلام ، وأردفه بالاستفهام الإنكاري تنزيلا بالمخاطب منزلة الذكي اللبيب الذي إذا نُبِّه ينتبه ، وإذا نُهِي ينتهي ، والهمزة الإنكارية تدل على تحكيم المخاطب بنفسه على نفسه ، وحمله على الإقرار على سبيل التهكم والسخرية ، ثم عقد فعل الأمر « فحيوا » للتعجيز ، والنهي « لا تمُوتُوا » للتقوية ، لأن الكلام الأول ينشئ الشك والريب في نفس المخاطب متردداً متحيّراً مفاده كيف ينتهي الندّ الحيّ عن إشمات ندّه الراحل؟ فبيّن بفعل الأمر للتعجيز وأوقع فعل النهي توكيداً معنويًا ، ونزع منه أداة العطف إذا الجملة للأولى تالية وليدها فلا رابط لفظي يربط بينهما فيثبت المنكر ما نفاه ، وإذا تبيّن لك موقع « بالدوام » متنازعاً بين الفعلين ؛ علمت أن البيت بناه الشاعر على أسلوب قوي يشد بعضه بعضاً ، وعلى هذه الشاكلة من التنديد جاءت الجملة الاستفهامية في قوله :

ألما مات أنتم خالدون فكل النفس ذائقة الحمام

إنكارية تكذيبية لتوجيه اللوم الشديد عليهم بأن موت الفقيد لم يقع مجلبا لخلودهم وبقائهم في الحياة ، وكل ما يدب على وجه الأرض يذوق الموت ، وهو حقيقة لا محيص منها .

ومن مزايا القصيدة في إثراء الجو العام لتداعي المعنى والمغزى حسن استخدام الفاء الفصيحة في البيتين الآتيين :

أيا أعداءه قد مات عنكم ... فحيّوا لا تموتُوا بالدوام

ألما مات أنتم خالدون ... فكل النفس ذائقة الحمام

فقد عقد في الجملة الفعلية للتعجيز ، وفي الجملة الاسمية للتوبيخ ، وذلك إذا ثبت أن الغابر ما مات ليخلد أعداؤه ، ولماذا يتفكهون شامتين وما دامت داهية المنون لا تغادر أحداً فإن المستهزئ ملوم مذموم . ومن براعة البناء والأداء وقوع الأبيات الثلاثة الأخيرة موقعاً جليلا من بلاغة الوصل لما فيها من قوة الربط الرائع من تجدد الوجوه وتعدد الألوان لحق التنويع البلاغي عندما يقول :

أيا شيخي وأستاذي نماج ... رعاك الله في دار السلام

لقد أخرجتني من غمر جهل ... جزاك الله خيراً يا إمام

جهلت بما يوافي المدح مني ... سوى الدعوات تذكر بانتظام

فقد أوقع عجز البيت الأول شبه كمال الاتصال إذ الجملة الأولى بمنزلة السبب والسؤال ، بينما وقعت التالية نتيجة حلت محل الجواب ، وكان البيت الثاني كمال الانقطاع ، ما قبله إنشائية تلتها خبرية ، ثم بنى البيت الأخير كمال الاتصال إذ تقع الجملة الأولى مبدلا والثانية بدل اشتمال لتقوية المعنى وتأكيده حتى يتحد الكلام ويتآلف ، ويتوازر بعضه ببعض ، ومثل هذا التنوع يدخل بالنص إلى القلب من جميع أقطاره حتى يقتنع ، ويطمئن ، ويقر .

وأما التصوير الفني ؛ فلم يتعثر عن الأداء الجليل للمعنى الذي يبينه صاحب النص حيث ألهمته براعة الإبداع كيف تدبّ الروح والنبض في هيكل الكلام حين حركه فتحرك وأذكاه فذكا ، فقد ادّعى أن الهموم ليست صورة معنوية مجردة ، بل تأخذ شكلا من أشكال النغم الحزينة التي تهز الآلام والهموم في النفس هزة عنيفة لما تخرجه من خصائص ذات تأثير قوي على القلب ، ثم أسند الفعل «هاج» إلى «نوح» مضافاً إلى «الحمام» لما له من آيات باهرة في الشجون المؤلمة ، وكأن الموت بطل شاكي السلاح جريء الاقتحام على الحدود فيحطمها ، وأنه لبق الإغارة على من قصده إغارة محس بالدقة للاستيلاء عليهم ، والظفر بهم في منتهى الدهاء تجوزاً وتوسعاً على أسلوب إسناد الفعل إلى ما يلابسه متوخياً سبيل المجاز العقلي للعلاقة السببية ، ويعمد إلى التجسيد المعنوي لإثارة قوى هائلة وعوامل مثيرة لغرض الكثرة ما لا يؤديه العدول إلى الحقيقة ، وحين آثر «عاق» وأسنده إلى الدمع تقوية للمعنى ، وما من شيء يعترض المرء من القوت وهو قوام الحياة إلا وهو جليل وقوعه ، وعظيم مصابه .

ومن روائع التصوير بالمجاز العقلي ؛ ما ورد في قوله :

فما أدري يميني من شمالي على ما غار من أمر الحمام

فقد أوقع الفعل المنفي على الجارحتين على سبيل التوسع والتجوز لبيان داهية المصيبة التي حلت بهما ، واستولت عليهما فعطلتهما عن إحساسهما وإعمالهما ، وأي حيرة وشدة أورثت الجهل بما يدور في الجارحتين وهما أو في الحواس الخمس في مزاولة الأعمال إلا أن يكون فادحة عظيمة .

ويسند البكاء إلى «كل» لدلالة العموم ، ومن المستحيل أن يبكيه جميع من يعرفه ، ومنهم أعداؤه وحساده الناقمون عليه فضلا عمن جهلوه البتة ؛ وذلك بأن أولئك المكابرين قد عرفوا مكانته ، ولكن الجور يلعب بهم ويعبث بهم ، فإذا ما جدّ الأمر عادوا إلى صوابهم وسدادهم :

سـيبكي كـل أهـل العلـم طـرا علـى فقـد الطوالـع كـل عـام

وفي إضافة « فقد » إلى الطوالع ذو سند قوي في عادة الشعراء يقول ابن رشيق القيرواني : « ويرى النقاد أن مجال القول يتسع أمام الشاعر عندما يرثي كبار الرجال في الهيئة الاجتماعية ، لأن في أفعالهم وصفاتهم ما يستطيع الشاعر أن يسجله في شعره ويشيد به »[1] .

ومن بديع الصناعة ؛ وقوع كثرة الكنى تعبيراً عن حسن التواضع والتظرف ، وجمال السلوك ، والكرم ، والتيقظ ، في : « دليل العلم ، ومصباح الظلام ، وكثير الخير ، وإتقان المعرفة » ولا يتصف بهذه الأنماط إلا عن كمل علمه ، واتّسعت دائرة عقله ، واتّضح اهتداؤه ، وحمدت شمائله ومكارمه ، ووسع الناس ما لديه ، ولا غرو فقد دلّت التجارب والخبر والمواقف على ما للفقيد وأسرته من ثقة وشهامة ونجدة وكرم ، إذ كانوا محط آمال أضياف العلماء والمتعلمين خصوصا المغتربين ، وهدته كذلك الملكة البلاغية إلى تلوين فكرته بعدة وجوه من الصور البديعية ، ومنه جودة الاقتباس في قوله :

ألمـا مـات أنـتم خالـدون فكـل نفـس ذائقـة الحمـام

فهو من قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٤،٣٥) ، توكيداً لدعواه ، وتقوية لمغزاه ، وليس ما يبلغ الأمر إلى غايته من وكدة إلا ما آمن به المخاطب ، وكلام الله ورسوله أقوى مناسبا في موضعه .

ومن الحديث الشريف في البيت الأخير :

جهلـت بمـا يـوافي المـدح مـني سـوى الـدعوات تـذكر بانتظـام

فإنه ينبع عن العهد الذي أخذه على نفسه لرعاية حقوق شيوخه عندما

---

(1) ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ٢/٢٠.

يعجز عن توفية جزائهم ، فإنه لم يعجز عن حسن الدعاء لهم اقتباساً مما رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من أعطاكم به فكافئوه ، فإن لم تجدُوا فادعُوا الله حتّى تروا أنّكُم قد كافئتموه »[1].

وتلهمه الفطانة بدقة الوجوه عند تخير المذهب الكلامي لإقناع المخاطب ، وإبطال دعواه ، وإفحام خصومته في عدّة أبيات تحمل قوة الاحتجاج بنزعة التعليل تارة ، والتحليل مرة ، والتقرير طورا ، وغير ذلك من وجوه الاقتباس المعنوي ، ومن أعظمه صراحة ولفظا :

أيا أعداءه قد مات عنكم ... فحيوا لا تموتُوا بالدوام

ألما مات أنتم خالدون ... فكل النفس ذائقة الحمام

وذلك لأن موضوعه ليس لتعداد مناقب الميت ، ونسج محامده ومحاسنه فحسب ، بل إنه يتطلب الدفاع عنه أمام خصومه ، وكشف هزلاتهم وإبراز تهافتهم ؛ إذ كانوا يظنون ظناً قوياً أن وفاة نماج تفاؤل لهم واستبشار ، ومن ثَمَّ بدت مناقب ممدوحه لا تتجلّى مزاياها ولا تثبت حقائقها إلا إذا اقترنت بذكر عيوب أعدائه ، واستحضار رذائلهم النفسية والخلقية ، ولذا ناداهم على التبكيت قبل النعي بوفاة أستاذه حتى لا يتخذُوا ذلك ذريعة إلى الهزء والإشمات ، وأتبعه الأمر والنهي على التعجيز ، وألقى الفاء فصيحة بمعنى إذا كان موت الند يجلب تمديد حياة خصومه ، وتطويل أعمارهم فليبقوا ويخلدوا على أسلوب المذهب الكلامي ، لأن المخاطبين لا يزالون تستبد بهم الظنون إلى اعتقاد بليد جرّهم إليه فهم سقيم لمدار الحدثان ، وأصبح سندهم الذي ركنوا إليه ضعيفاً ، وما دامت قاعدة الكون تقتضي أن تقترن الحياة بالموت ، والبقاء بالفناء ، إذ كل حي سيلقى موته ، وكل باق سيعود فانيا آجلا أو عاجلا ، إلا الحي الباقي السرمدي المطلق ـ جل شأنه ـ ، فلا بدّ أن يعبر الشاعر عن هذه النواميس ، وأن يورد كلامه على سنة تهيها المرونة والدقة ، « ومثل هذا الانتقال

---

(1) الإمام محمد بن جرير الطبري ، معاني الثابت عن الله ، ١/٤٥.

ينفي الملل لحسن موقع الاستظراف ، ويخلط فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ليستريح القلب ، ويسكن إليه النفس »[1].

وإذا كانت هذه الجهة هي التي سلكها الإلوري من البطولة والملحمة متحديا خصومه على البقاء السرمدي ، والحياة الدائمة التي لا يعتورها فناء ونهاية ؛ فإن المذهب الكلامي أكثر مناسبة للمقام لإفحام المنازع وتبكيت الشامت خصوصا عندما لاحمته أنماط بديعة تؤتي الكلاء وضوحه وميزته كالاستطراد ، حيث انتقل من تعداد مناقب فقيده ومثالب أعدائه ، وهو خروج ينعته أهل البلاغة بحسن الاحتيال ، وتحقق المراد ، وإصابة الغرض[2] ؛ لأن الأمور تتعالى مزاياها بمجاورة أضدادها ، ثم زامله الاقتباس القرآني لجذب القلوب إلى المقصود وتأكيد ما أثبته ، وجعل رباط الجميع مقابلة تقوي التضاد وتبين أن وسائل الأشياء يتداعى ذكرها بمجاورة ما يقابلها « فالخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلو بالمر ، والقليل بالكثير ، والصغير بالكبير ، والباطن بالظاهر »[3] ، ويعمد في قوله :

فما أدري يميني من شمالي　　على ما غار من أمر الحمام

إلى أسلوب تجاهل العارف ليخرج ما يعرف صراحة مخرج ما يشك فيه ليزيد به التوكيد ، ليس لينكر ما له عليه من فضل ولكنه يثير في نفس المخاطب مشاطرته في أحزانه ، لأنه عانى ظروفا قاسية لفقد أستاذه ، وهو في مرحلة النبوغ الأخيرة من تعلمه ، وكم تمنّى أن يمتد به عمره فيتلقى منه التوجيه والإرشاد ، وما ينفعه في أوائل دور الرجولة وأواخر المراهقة ، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق حين خلفه شيخه ، ولبى نداء ربه ، فبكاه بكاء أليماً تكاد الكلمات ترتعش في شدقه تنفيسا لكربته وتخفيفاً لبلواه ، وللمحافظة على رونق النص وقوته رشح كلامه بعدة من جناس طريف لاحم السجع ملاحمة

---

(1) المبرد ، الكامل في الأدب واللغة ، ٢/٢.

(2) ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ٤٢/٢.

(3) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ٦٦.

قوية تؤتي ظلالاً وارفة من الموسيقى الداخلية الجيدة في «الحمام» عند قوله : «همومي هاجها نوح الحمام» ، وفي «كل نفس ذائقة الحمام» ، وفي «ما غار من أمر الحمام» كل ذلك يؤدي خصائص الكلام وحدة متناسقة بين أجزاء الكلام حتى يتلاحم معها في النص أخوة متماسكة .

وعاد بنا الكلام إلى بيان الموسيقى ، ونراها تتميز بخصائص فنية جيّدة متجلّية في بحر الوافر ، وهو يناسب الموضوع حيث عقده ليس لتعداد مناقب الراحل وذكر فلسفة الحياة للاعتبار فقط ، وإنما لينفذ إلى هدف آخر ، وهو إقرار عظمة العلم وتقدير أهله ، والدفاع عن أمجادهم ، وليس من شك في أن هذا الاختيار للكلام يناسب المقام في إقامة البراهين وإبداء اللوعة والانفعال لمكانة الفقيد وغيرها مما يؤكدها بحر الوافر ، ويبث هذه الروح ، وينشرها في ثنايا النص رقة وحناناً ، ولا تقل القافية كذلك شأناً خصوصاً عندما يراعي فيها المد للتيسير على إطالة الصوت ، والانتهاء بالميم لإيقاع الترنم الشديد ، وإلى جانب ذلك تقع أشكال أخرى جميلة كالتصريع والجناس ، والتكرار وقصر الألفاظ التي تكون صورة مبدعة في التحسين الفني ، وإذا بقي لنا كلام هنا ؛ فإن قوله :

جهلت بما يوافي المدح منّي سوى الدعوات تذكر بانتظام

فقد سوى بين المدح والمرثية ، وتلك تسوية درج عليها النقاد حيث ورد منهم «إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: «كان» و «تولّى» و «قضى نحبه» ، وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه ، لأن تأبين الميت إنما هو يمثل ما كان يمدح به في حياته ، وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير «كان» وما جرى مجراها ، وهو أن يكون للحي وصف مثلا بالجود ولا يقال «كان جواداً» ولكن بأن يقال «ذهب الجود» أو «ومن الجود بعده» ومثل : «تولى الجود» وما أشبه هذه الأشياء ، تقول الخنساء في أخيها صخر :

لقد فقدتك حذفة فاستراحت … فليت الخيل فارسها يراها[1]

ومما يلاحَظ عليه قوله :

سيبكي كل أهل العلم طرا … على فقد الطوالع كل عام

وتوكيد المجاز هنا يخرج عن المألوف ، علماً بأن هذه الصورة البلاغية تتضمن من خصائصها معنى تقوية ، فإذا أكّدت مرّة أخرى يحيل الكلام إلى الاستحالة ، وقد استنكرت قبلاً ، وجل الله من لا يخطئ .

مقاومة الرّذائل :

تُعدّ مقصورة الديوان أوفر مادة تدور في قضايا خلقية ، لأن موضوعها أصلا يعالج ما انخرط في نفوس الناس من الإفراط والإسراف في رذائل الأخلاق ومفاسدها ، ولم يله عن النداء الصارم إلى بدائلها من فضائل وقيم عليا .

والواقع أنّ المجتمع النيجيري عصرئذٍ قد اختلّت موازينه في المثل الإسلامية ، واختلطت ببدعها ، وتصور الناس حقائق التوقير والإجلال في أساليب تحايا جاهلية شنيعة لا علاقة لها بالحنفية إذ لم يأذن بها الله جل شأنه من سلطان ، فحل الخحل والكسل والرعونة محل الحياء والتواضع والصراحة ، وسطا الاعتقاد السطحي الضعيف على الشخصية ، وصرف الوهم النفس عن ارتياد معالي الأمور ، فقعدت العزائم عن العظائم ، وخرست الصراحة عند الحق ، وفترت الحرية ، ومات الضمير ، فقال :

ويح قومي جهلوا معنى الحيا … وأساءوا فيه ختما وابتدا

هكذا قد جهلوا التواضعا … وبنوه في سجود وانحنا

خلع نعل جعلوه واجبا … لهم قبل وصول للفنا

وانبطاحا لهم عند السّلام … وبروكا لهم عند اللقا

---

(1) وفي رواية ، فقد وردت (طلحة) فاستراحت أو طلقة وقيل: إن حذفة فرس صخر ، راجع ديوان الخنساء قافية الهاء ، ص : ٨٦ .

علمــاء الســوء دومــا همهــم ... في طعــام وشــراب وكســا
قُطعــت ألســنتهم عنــد المــلا ... أصــبحوا طوعــا عبيــد الأمــرا
كُمِّمــت أفــواههم روم العطــا ... فــانبرَوا يمتــدحون الأغنيــا
مــع هــذا يزعمــون أنــهم ... أفضــل الخلــق وريثــو الأنبيــا
كــل مــن خــالفهم في هــذه ... وصــفوه بالــذي منــهم بــرا
جعلــوه كــافراً في دينــهم ... واســتعدّوا لقتــال واعتــدا
والتواضــع الــذي نعرفــه ... مثل ما في العقــل أو شــرع السما
بقبــول الحــق مــن كــل أحــد ... واجتنــاب جــرّ ثــوب الخــيلا
واحتــرام النــاس في حــد النــهى ... وانضــباط الــنفس لا كالحمقــا
والحيــاء الحــق إن تســألني ... مــا يقيــك العــار عنــد العقــلا
ويقــي مــن كــل فحــش وخنــا ... غــير هــذا لا يســمى بالحيــا[1]

تمثل القصيدة ظاهرة هامة للأدب الإسلامي مبارزة لتغيير المنكر وإصلاح ما شاع من عادات وتقاليد ممقوتة، نشأت من رواسب الشرك، والوثنية، ومن السذاجة البدائية، حين اختارها الناس منهج حياتهم، ومبلغ مقصدهم، وتتجلى قيمتها الفكرية من حيث تكامل وجهيها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مناديةً إلى محاربة منكر الأخلاق، وشفعتها بالدعوة إلى مألوفها السني، وحرضت على التمسك بفضائل ومكارم، والثابت أن مثل هذا التفكير والتعبير يرضي الله ورسوله والمؤمنين والإنسانية، لما في النص من تقدير جميل للمسئولية وأدائها دون خشية لومة لائم، وقدح قادح.

ويمكن تحديد فترة هذه الأوبئة الخلقية إلى ما كان عليه الناس منذ العصور الجاهلية الأولى، حيث يتوارثها الأخلاف من الأسلاف كابراً عن كابر، وهي

---

(1) الإلوري، ديوانه لقطات، ص: ٦.

obeikan.com

من جملة الأخلاق التي أنكرها العلماء أمثال العمري[1]، والقلقشندي[2]، وابن بطوطة[3]، ثم المغيلي[4]، والسيوطي[5]. على ملوك غانة، ومالي، وبرنو، وسنغي، وكتسنة، وكنو، فتعاقب على محاربته ولوند، والتكداوي، والبكري، وثقة، وطن مسني، والمرتي. ثم جاء عصر الجهاد، وناضل قادته هذا الشذوذ الخلقي نضالا طويلا، فقامت السنة وزالت البدعة، ثم انقضت على هذه المكارم السامية القوة المستعمرة الباغية لتبني على أنقاضها دولتها، فتسللت عادات وتقاليد جاهلية في صفوف المسلمين من جديد منتشرة في ظواهر عديدة. والجاهلية غاية واحدة، وإن تفرقت سبلها، وتعددت أشكالها، تراها في العقائد والعبادات، والعادات والتقاليد، والسلوك والأخلاق، والحكومات والسياسات، والآداب والفنون، ومن ثَمَّ وجبت مقاومتها ضرورة إسلامية، ومهما تباهت وجوهها وتباعدت أشواطها ؛ فإنها مريضة مشلولة لا تقوى على التفكير السليم، والتصور الدقيق، ولكن إذا لم تلق المقاومة تظل تبث سمومها في المواطن البريئة، وتموت التي من شأنها أن تحيا، ويمكن حصر مظاهر الجاهلية في أمرين :

أولاً : جاهلية عامة، وهي ما شاع بين الناس، سواء فيها طبقاتهم علماء وجهلاء، أغنياء أو فقراء، مسلمين أو غيرهم، إذ كانوا يتوهمون ساخفين أن تلك العادات الخبيثة أعلى قدرًا لتحايا علية قومهم إيماناً بما لم يأذن به الله، ولم تقض به المروءة و لإنسانية، وملوكهم على زعمهم خلفاء الله في الأرض أو ثوانيه بين الخلق، ومن هذا الصنف من يحيون عظماءهم حفاة حاسرين الرؤوس منبطحين، راكعين، ساجدين توقيراً لأولي الفضل والملك.

---

(1) العمري، بهاء الدين، أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص:٤٩٨.

(2) القلقشندي، أبو العباس، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٥/٣٠٠.

(3) ابن بطوطة، أبو عبد الله بن محمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار، ٤/٤٠٩.

(4) الإلوري، المغيلي وآثره، في الحكومة الإسلامية في نيجيريا، ص: ٤١-٦٩.

(5) السيوطي، الحاوي على الفتاوي، ص: ٢٨٤-٢٩٤.

ثانيا : جاهلية طبقية وهي ما تدور بين الوجهاء ، وغالبا ما تدور بين العلماء والزعماء حيث تخشع الفئة الأولى الأخيرة خوفا من اضطهادهم ومهابة لقوتهم وسلطانهم ، فيلبسون عند نصحهم الحق بالباطل ، ويلجؤون إلى فنون أساطير وأقاصيص مضحكة تروقهم معرضين عن مثالبهم ، ويختارون الكذب على الصدق ، ويلزمون الصمت عن الحق ، بل كانوا يؤثرون ما عندهم على ما عند المنان ، ومع ذلك يحسبون أنهم خلفاء الأنبياء وورثة رسائلهم ، وقد يرفعهم الوهم إلى الإفتاء بمروق المخالفين لهم عن الدين ، ويقررون قتالهم واعتداءهم وسفك دمائهم واعتقالهم وتكفيرهم وتفسيقهم ، وليس الأديب الإسلامي من يشدّ قوله على زجر الرذائل والنعي على الغوائل ومحاربة الاستهتار بالقيم الرفيعة ومقاومة التمرد على الفضائل دون الإشادة بالالتزام وانتهاج الطريق المستقيم ، لأن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توجب ذكر الأمور بأضدادها ، وتصوير ما في الشر من ضرر ، وإلى جانبها بيان ما للخير من منافع ومقاصد ، ولذا نرى الشاعر عندما حارب أوساخ الأخلاق ورذائلها نادى إلى بدائلها من فضائل حتى تتضح الأمور ، وشرح وجوها صحيحة للتواضع والحياء ، وجعل مناطهما السليم في الاعتبارين الشرعي والعقلي ، وذلك بقول الحق والاقتناع به دون نظر إلى مصدره ، ونبذ التكبر ، والزهو ، واحترام الغير بدون إسراف ، وضبط النفس بلا مذلة ، وصون النفس عما يدنسها ، والإعراض عما أنكره أولى النُّهَى من فحش ورعونة ، وكل ما يدور حول إثارة الغرائز الحيوانية ، أو التي تحكي مواقف أهل المجون ، والشطار ، وسفلة الناس ، لأن نشر أمثال هذه المعاني في الأدب يساعد على ذيوعها وترويجها وتشجيعها وإيثارها على الخلق الكريم ، وهكذا يستقيم تحديد المعاني الجليلة إذا كان الأديب واعيا قوياً قادِراً على صب أفكاره المناسبة في الفن ، وسبكها سبكاً جميلاً ، وعلى هذا المنوال عالج الشاعر الفكرة على ضوء التصور الإسلامي ، فنادى إلى مقاومة الرذائل لأنها تتصل بالشرك ، والكفر ، والوثنية ، وكل ما على شاكلتها «لأن الله شرع استئصالها فلا يمكن أن يستقيم الإيمان مع

الشرك ، والجمع بين عبادة الله وعبادة غيره من الكائنات ، ومن ثَمَّ ينقل المسلم نقلاً كاملاً صارماً من البيئة الكفرية إلى الإيمانية التي تقيم كل شيء على أسس وحدانية الله في خلقه ، ووحدانية القوة المسيطرة على الكون المصرفة لجميع الأمور »[1]

ومن الخصائص الفكرية في القصيدة ؛ قدرة الشاعر على ستيعاب ما لها من أفكار جزئية متعددة النواحي ، وبرغم أن الموضوع كان يتضمن كثرة أحداث ، وكل حدث يمكن أن يولد العديد من الأفكار ، وهذا لا يعني جمع الأديب أنواع المعاني كلها ، بل ليصوغ إنتاجه من ركائز شديدة الإثارة ، ويستعيض ما تركه من الأفكار ما اختاره منها ، ونفخ فيها من أحاسيسه ومشاعره ، وأبرز ما يقال هنا ؛ إن الروح الإسلامية الوثابة عميقة تتجلى مزاياها في محاربة البدعة ، ومساندة السنة ، لأن الجاهلية مهم تكن من قوة ؛ فإنها تنتهي في آخر مطافها قاعا صفصفاً لا أثر لها ، وأن القيم الإسلامية مهما شُوِّه وجهها وقُطِع رأسها فإنها تطلع من حيث لا يتوقع ، شأنها في ذلك شأن الزرع الطيب الذي أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، ولذا فإن العادات الجاهلية بدعة شنيعة وليدة الانحراف الشنيع ، ولم يكن لها منهج محدد يتحد فيه جميع لناس بل كانت لكل فرد أو جماعة أو قوم عادات يعتقدونها ، فاتخذ الناس في نظر الإلوري وجهات مختلفة في السلوكيات السلبية من انحناء ، وخلع نعل ، وانبطاح ، وقتل حرية فكر ، ورأي .

والحق أن التحية والاحترام والتوقير من مظاهر الحضارة الإسلامية السامية ، لأنها تكسر شوكة الغربة والوحشة ، وتزيل التكبر والعجب ، وتحدث أواصر الألفة إذا كانت على أساس التبادل ، ولذا أبطل الإسلام ما كان شاكلة الشحناء ، والبغضاء ومج كلمات اللعن ، وما يقاس بها ، فأتى بصيغ أخرى كسلام وسلم ، وأمن وأمان للدلالة على بث الألفة ولتفجير ينابيع السرور ، وتجلية أسارير

---

(1) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، ص : ٨٥ .

الغبطة لتقوى عرى التراحم ، والتعاطف ، والتوادد . ومن عظمة الفكرة ما تروقك من جانب العرض في دقة التسلسل والبناء من رصانة ، فكل ظاهرة من ظواهرها ذات صلة متينة بغيرها من السوابق واللواحق حتى تتكاثر وتتعدد في عرى الوحدة والقوة ، ويمكن أن تلاحظ علة ذلك من الأصالة حيث تمتد جذورها وأبعادها ثابتة سواء من واقع الشرع أو العقل خصوصا عندما استند إلى قدرة الموازنة بين ما يعتقده القوم من قيم الحياء وبين ما سواها في ظواهر الحياة الإنسانية ، فتلقى مواقع الاختلاف الكثيرة ، غير أنه مال ميلا قويا إلى الشدة والعنف في بعض مواقفه ، وعبر عن المرض الخلقي بأقوى ما يكره من صور البدعة وهي الجاهلية .

وخليق به أن يخلع على هذه العادات الشنيعة صفة « الجاهلية » لأنها صورة من الإفراط والتفريط ، والجاهلي يبالغ في احترام غيره وتوقيره إلى حد يتخذه إلهه ، ولا يدري أنه فرط في حق نفسه حيث أهانها ، وأذلّها وأنزلها إلى حضيض المنزلة ، وأعظم هذه الخصائص ثبات الحق والبرهان ثمرة اعتقاد صادق وإيمان راسخ منذ عانى الشاعر الانحراف السلوكي من قومه تجربة طال عليها الأمد ، ومرت بمراحل كثيرة من عمره ، ووضعت في نفسه غورا عميقاً ، فأصبح يحسها إحساساً قوياً ، فعالجها في شتى فنونه بدقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة وسعة العقل وعمق الفكرة إلى أن أضحت اتجاها بارزاً لا في نفسه وحده بل تعدو عدواها إلى كل مواليه تلامذة وأتباعا ، وحق لمثل هذه التجربة أن تفعل هذا وذاك لأن صاحبها عايشها ما يقرب نصف قرن ، وعلى مدى هذه الفترة تناولها دراسة وعرضا وتشخيصا موضحا ما فيها من عيوب ، ثم اقترح لها علاجا قويا بعقل واع ، وبسعة من تقصي الحقائق والأفكار التي تأخذ شكلا موحداً من نسج العقل على نحو ما تقوى به الحجة ، ويعظم به البرهان ، واستوفى الكلام غرضه على هدى من الفطانة والوعي ، وبقدرة الاستدلال والاستنباط ، يدل ذلك دلالة قاطعة على استيعاب الشاعر مرامي الأمور وخاصة اختياره للأنماط القديرة على الإثارة ، وكذلك تتجلى من خصائص

الفكرة قوة العمق بارزة من استيحاء الأحداث الماضية ، إذ أن تاريخ الدعوة إلى الله في المنطقة قد امتدّ أدوارا هائلة يشهد مجرى من الصراع الدعوي بين العلماء المخلصين وأهل السوء ممن انضمّوا إلى الطغاة والظلمة رغبة في الدنيا ، ويقول :

علماء السُّوء دوما همهم   في طعام وشراب وكسا

فهو عرض عريض لحلقات مسلسلة من نضاله ضد العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا وزخارفها ، وتهادنوا مع الملوك الظلمة وسكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إنهم كانوا يظهرون الخير والتبشير بما لهم من علم ومعرفة وثقافة ، ولكنهم يضمرون الشر ، بل يخدعون الناس ، ولا يعلمون بمقتضى ما علمهم الله وأمرهم ببيانه دون كتمانه ، وسعيا وراء جمع حطام الحياة الزائلة .

غير أن هؤلاء العلماء تشهد عليهم قصص طويلة ومواقف حاسمة ، إذ تورع الإلوري غير متزلف إلى الأمراء والسلاطين ، وعلية القوم إلا لدعوتهم إلى الله وسنة رسوله الكريم على حين كان العلماء الآخرون يتخذون المهادنة منهجهم ، وقد لقيهم في خنادق العصبية الدموية ، والدينية ، والعلمانية ، والاستشراقية .

على أن قصة علماء السوء[1] كانت أطول بكثير ، وأروعها تلك الصفحات المجيدة التي عقدها القادة الجهاديون ضد علماء بيوا ، ومقم ، وجندوت ، حين أغراهم ملوك غوبر على معاداة الشيخ عثمان وأتباعه ، وتحريض شعوب المنطقة على محاربتهم إذ هم يخلصون في دعواتهم ، ولا يقبلون الرشى والتحف من قبل الأمراء ، والقصيدة الحائية التي راسل بها عبد الله بن فودي العلماء الفلانيين ، وبائية محمد بلو إلى علماء غرس أكبر دليل على تلك الأدوار التي قام بها أولئك المتهادنون مع الملوك الظلمة .

---

(1) جاء التعريف بهم ـ علماء السوء ـ لدى المقدسي : هم الذين قصدهم من العلم التنعم في الدنيا ، والتوصل إلى منزلة عند أهلها ، مختصر منهاج القاصدين ، ص:١٦.

وربما يمتدّ الأمر إلى عهود كل من الشيخ النجيب التكداوي[1] ، والبكري[2]، والبرنوي[3]، ومحمد البغدادي[4]، والشهيد الوالي بن الجارمي ، وزميله ولوند[5]، وغيرهم ممن تعرض لهم سلاطين زمانهم وألقوا القبض على بعضهم، ووقع منهم مشردين ، ومعتقلين ، وسفك دماء غيرهم شهداء ، بيد أن هؤلاء الملوك لم يستطيعوا قمع ثورة أولئك الدعاة إلا بمعاونة الأدعياء الخونة الذين يفتون بما يطابق أهواء الجائرين متمادين في الظلم ، لولا أن الله ـ جلت حكمته ـ أيّد عباده المخلصين على أولئك الشياطين وأوليائهم من الطغاة في مواطن كثيرة لأطاحت بالسنّة البدعة .

وعلى الرغم من ذلك ؛ فإن هذه الانحرافات لم تزل تطل على الأمة الإسلامية في عصر العلامة الإلوري ، فنهض لمحاربتها بقلبه ولسانه وقلمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإذا انتصر أولئك السابقون على أعدائهم فرسموا خططاً مستقيمة ينبغي أن يسلكها مجتمعهم ، كان حقا عليه أن يقتدي بسننهم البديعة ، لأن الأديب في منظور الإسلام ليس من يحارب الشر فقط ، دون أن ينشر الخير ، وعلى ضوء ذلك يقيم قوله :

والتواضع الذي نعرفه ... مثل ما في العقل أو شرع سما

إلى آخر الأبيات سنداً قوياً لدعوته ، ونتيجة مسلمة لمقدماته اليقينية حين شخص الأمراض ، وفحص عللها وأسبابها ، واقترح علاجها متمثلا في نهج الهدى والرشاد، وهو انتقاد سليم يبيّن علو القول الحق، ووجاهة الرأي القويم، وعظمة الجيد وتفاوته على الرديء المستقبح ، وهو موقف سديد يلتقي فيه مع روح الأدب الإسلامي في مسيرتها الإنسانية إذ يعود بنا إلى آراء الثقاة

---

(1) ديوان عبد الله بن فودي ، تزيين الورقات ، ص: ٢٢ ، وديوان محمد بلو ، ص: ١٤.

(2) قد عدّه معاصروه من العلماء المنجمين على نحو ما سبق ذكره.

(3) عارضه تلامذته على تكفير المسلمين الذين يشركون بالله في عبادة النيران.

(4) كان سلفيا سنيّا قام بمحاربة البدعة الشنيعة لجلب حطام الدنيا.

(5) قبض عليهما سلطان برنو ، وقتل ثانيهما شهيداً.

الأخلاقيين البارعين[1] من أمثال النووي والراغب الأصفهاني ، والفضيل ابن عياض ، وأبي يزيد البسطامي ، ويوسف بن أسباط ، وذي النون المصري ، وإذا ألقينا نظرة أخرى على عجز قوله : « مثل ما في العقل أو شرع سما » ، وعندما يعبر تعبيراً واضحا عن عقيدة راسخة آمن بها منذ آماد بعيدة في ميدان التعلم والتحصيل والبحث ، فذلك همة عالية في الجمع بين العلم والدين ، وأنه بذل جهوداً واسعة النطاق خصوصاً دفاعه عن فلاسفة الإسلام ، وخاصة أئمتهم النابهين .

تلك ظاهرة عظيمة تنبئ عن مزية هذا الدين ومرونة علمائه ، إنهم قد يختلفون بحكم البيئة والزمان ، أو الفقه والفهم ، ولكنهم يتحدون في الغاية والهدف ، وإذا علمنا ذلك ؛ فإن الفكر الإسلامي لا يعرف من العصبية طريقاً ، ومهما عجزنا في استجلاء كل ما للنص من قيم فكرية ؛ فإن براعة قوله :

والحياء الحق إن تسألني ... ما يقيك العار عند العقلا

ويقي من كل فحش وخنا ... غير هذا لا يسمى بالحيا

تنهض فينا قمة من أجل قمم الأدب الإسلامي ، وهو شرف المعنى تقديراً عظيماً لقيمة الحياء ، وتنويهاً بشأنه في المجتمع ، وفي هذا يتلاقى الإلوري مع أعلام من سدنة النقد الإسلامي حيث ورد قولهم :

وشرف المعنى وهو الذي لا يعاف الرجل الكريم الصراحة به،والتحدث به ، ولا تعاف الفتاة ترديده والخوض فيه على مسمع قومها ، وهو جانب لم يضق به الفن والشعر حتى يتركه الأدباء إلى المعاني الرذيلة ، والأفكار الساقطة[2]

وهو معنى احتفل به النقاد السابقون :

من أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريماً ، فإن حق المعنى الشريف

---

(1) الإلوري ، الإسلام وتقاليد الجاهلية ، ص: ١٧٠.

(2) دكتور محمد عبد الرحمن بن شعيب ، النقد الأدبي الحديث ، ص: ١٢٠.

اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما بهجتهما ، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارها[1] .

وهناك مغزى آخر في عجز البيت الأخير قوله :

« غير هذا لا يسمّى بالحيا »

أنزله منزلة قرار حاسم ، كأني به يقول : « قد أفضت لكم النصح إفاضة جديرة بأن يرتدع المرتدع ، وأن يزدجر المزدجر ، إن كانت النصائح والنذر تغني وتنفع » .

تلك معركة حاسمة خاضها العلامة ضد الانحراف الخلقي ، ومن الملحوظ ؛ أنه قد ظفر بها ، وانتصر عليها ، وعلى حملتها حين بصّر الناس على أقومها للسير في موكبها الأمين ، وفي ظلها المكين .

أما الخصائص الفنية ؛ فإن الشّكل يلائم الفكرة من حيث البناء المحكم ، فأعربت القصيدة عن إحساس صاحبها لمعالجة قضية القيم والأخلاق ، وغلب عليها الأسلوب الخطابي لشدة العناية بالوضوح والسهولة ، ووقعت معانيها على ظواهر ألفاظها ، لأن كثرة اللجوء إلى التأويل والملابسة هنا تبعد الكلام عن مناط الإفادة المرجوة ، وكل ما اقترب أدب الخطابة إلى الحقيقة والواقع ازداد جمالا وإقناعاً ، وإلا فإنّ التوهم والالتباس من آفات حاجبة بين إرادة المتكلّم وقناعة السامع .

على أن هذه السهولة لا تحط القصيدة عن مكانتها إذا استبدل قائلها بالجزالة والغرابة ثراء العاطفة ، وقوة الانفعال حين عمد إلى جملة من العبارات الملائمة للفكرة ، والموقف الذي يعنيه حيث همّ بنقل ما تحيز في صدره إلى المخاطب من عقلية توقظ انتباهه ، وتحمله على نحو ما آمن به ، وفي التعبير عن النعي الشديد على الخور والخذلان والضعة نلقى كلمة « ويح » في قوله :

ويح قومي جهلوا معنى الحيا وأساءوا فيه ختما وابتدا

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١/١٣٦.

فهي تثير من معاني قوة الزجر ومبالغة الانتهار ، وكيف كان موقعها على النفس التي اختبلها الشيطان وأولياؤه من الإنس والجن ، فقد سوّلوا لهم الركون إلى السند المتهاوي ، ونصب الكلمة على المفعولية بإضمار فعل كأنك قلت « ألزمه الله ويحا » وهي كلمة قديرة على رسم المعنى القوي لمقاومة العنف ، ولكنها لا تخلو من إلطاف هذه الغلظة لإضافتها إلى ياء المتكلم لما لها من رقة وحنو ، إذ لم يقصد الشاعر إلا إشفاقاً على قومه ، ولطفاً بهم ، والناصح الأمين يهمه أن ينشر الخير ، ويحسر الشر ، ومن المؤكد ؛ أن هذا الأسلوب يلين قلوبا متحجرة إذا علم المخاطبون بأن النصح قد صدر ممن ينتمي إلى جنسهم متعاطفا عليهم ، ولما يربطهم به من عرق ودين وود ، وإلا فكيف ترى تعبيره في قوله : « جهلوا معنى الحيا » حين اختاروا الأخلاق الجاهلية على السنية ، وفيهم أمارات التنبه ، والتيقظ للحذر الشديد عن التردي في هذه المهالك السلوكية ، وكلمة « جهِلُوا » لا تؤدي بإيحاءاتها معنى ضد العلم والمعرفة ، وفي القوم علماؤهم وفقهاؤهم ووعاظهم ، ولكن لما يتعاطونه من سفاهة الأحلام وقباحة العادات جعل الشاعر يخلع عليهم صفة « الجاهلية » ، وهي أنكى من نظيرتها ضد العلم البتة ، وإذا علمنا أنه قد أطلق كلمة « الجاهلية » على أحد مؤلفاته وموضوعاته ثبت أنه كان يقصد حقا محاربة الرذائل والمناكر .

ولا تمنعه هذه الدماثة عن عظمة الصراحة في عجز البيت من دقة ، لأن تصرفاتهم في الأمراض الخلقية سيئة الوسيلة والغاية ، فهو تتبع واع لا لكشف عوراتهم ، ولكن ليوجههم توجيهاً مستقيماً حتى لا تبقى لهم مغارة يتحصنون فيها إلا استهدفها بسطوع وعظه ومحض إرشاده ، وأكثر ذلك توضيحا مادة « انبروا » للدلالة على خسة حالهم وذل مقامهم ، وحقارة مكانتهم إيحاء بأنهم قد خرجُوا من السجايا الإنسانية إلى الدواب ، إذ لا تعبر هذه الصفات إلا عن انسلاخ تام من أولي العقل والوعي إلى شذوذ السلوك . وفي التعبير بالبروك

والانبطاح بمعنى استناخت الإبل ، وهما للذل والمهانة مبالغة شديدة على خسة أحوالهم ؛ إذ كانوا يتصرّفون تصرّف البهائم والمواشي ، ولا يبالون بما لهم من عقل ومروءة .

وعلى هذه الأريحية جمع « عبيد » وإيثاره على العباد ، دلالة على بلوغ حقارتهم درجة قصوى إذ أن كثرة عددهم لا تعصمهم من التردي في مهالك الأخلاق ، وأنهم سلكُوا مسالك العوام ، فلم ينفعهم علمهم وعقلهم ، فيعتدوا بعزة العلم ، ومجد العلماء .

وقد يكون إيثار صيغة على أخرى من فحوى التكلف والخروج عن السجية والطبيعة من كلا الممدوح والمادح في قوله :

« يمتدحون الأغنياء »

وتخير « يمتدحون » على « يمدحون » تعبير قوي بأن القوم اختلقوا لعليتهم نعوتاً خارجة عن سجاياهم وطبائعهم ، ولم تطاوعهم الكلمة بل تكلفوا وتعسفُوا .

وكما تمتاز المفردات تأتي التراكيب على قوة الأداء والمغزى إلا أنه قد ساد على النص توالي الأساليب الخبرية من ابتدائية ، وطلبية ، وإنكارية للتدرج بالمخاطب إلى سنن يطابق فيها الكلام موضوعه ، ولعل الالتزام بهذا النوع البلاغي يجعل النص صورة حيّة من الوصف الدقيق لحال القوم ، ونمطا قديراً على إثارة العواطف والانفعالات دون العدول إلى الإنشائية ، لأن الحال داع إلى دقة التسلسل المحكم ، فعرض قصة القوم وساداتهم في معاملتهم ليؤتي مغزى جليلا من الوحي القصصي ، ومن لباقة الفن جودة الإيجاز في نداء القوم بأسلوب الاستغاثة : « ويح قومي جهلوا معنى الحيا » ، لأنه مقام يحتاج إلى اختصار القول للتعبير عن شعور قوي من داع ملهوف إلى شفاء عاجل للمرض الخلقي ، ومثل هذا الموقف يستوجب أسلوب الإيجاز ، وينفذ الشاعر إلى جمال الإطناب المحمود في أداء التقوية والتأكيد للتفصيل بعد الإجمال ، لأن

قوله : « والحياء الحق إن تسألني » مفتقر إلى ما يزيل غموضه ، ويكشف إبهامه ، فجاء عجز البيت « ما يقيك العار عند العقلا » توضيحا وتفصيلاً .

ومن هذا النمط في روعة الإطناب قوة التكرار في قوله :

ما يقيك العار عند العقلا

ويقي من كل فحش وخنا غير هذا لا يسمى بالحيا

وينزع نزعة النحاة المقتدرين لربط البيت السابق بالذي يليه جملة الاشتغال متلاحمين بالموصولية لشد الكلام وتركيزه في بؤرة الشعور حيث يقول :

والتواضع الذي نعرفه مثل ما في العقل أو شرع السما

لتوضيح المخاطب حقيقة الأمر ، وحمل عقله على المحجة الصحيحة من واقع البحث والتنقيب والتمحيص على ضوء المصادر الصحيحة دون أن تذهب به الحيرة والتردد إلى مهاوي الضلال والغواية ، وكان القوم قد تصوّروا الوضع الخلقي في شبهات مكفهرة من نسج الأوهام ، وهم جميعاً يتنازعون عليها ، وأدى بعقولهم إلى الزيغ والبدعة ، وعلى نظير ذلك البيان الرائع تأتي قيمة أسلوب القصر تارة في تقديم ما حقه التأخير في قوله :

« **خلع نعل جعلوه واجبا** »

وربما يجمع ذلك مع تعريف الركنين في :

« **والتواضع الذي نعرفه** »

« **والحياء الحقّ إن تسألني** »

متوخية أداء المعنى الواحد في قوة الجملتين ، أولاهما مثبتة والأخرى نافية ، والجمع بينهما يؤتي معنى الثبوت والقوة ، والوكدة للحكم الذي أسنده الشاعر على سبيل المبالغة والادعاء .

ومن القيم الفنيّة ؛ بلاغة الوصل التي تهب الكلام مغزى جليلا من قوة الترابط والتلاحم لترسيخ الفكرة ، لأن المناسبة تجديد بناء العقيدة الصحيحة

ومحاربة أضدادها الهدامة من مساوئ الأخلاق ومفاسد السلوك ، ويسمو بالشاعر هذا الغرض حين جعل البيت :

ويح قـومي جهلـوا معـنى الحيـا   وأسـاءوا فيـه ختمـا وابتـدا

للذي يليه :

هكـذا قـد جهلـوا التواضـعا   وبنـوه في سـجود وانحنـا

وصلا معنويا بإسقاط العطف لقوة الربط بينهما حيث يقع توكيداً له ، ومفاده أن الشاعر لما ادعى أن قومه جهلوا معنى الحياة ؛ فكأن المخاطب توهم سائلا : هل اقتصرت جاهليتهم على ذلك؟ فأجاب بما يليه الثاني وآثر فيه توكيد الفعل « بقد » لتحقيق الأمر ، ولغاية نكتة بلاغية احترز من التكرار الممل إذا ظلت الصيغ على حالتها الأولى ، وعندما يقول :

علمـاء السـوء دومـا همهـم   في طعـام وشـراب وكسـا

إلى خمسة أبيات تالية يؤكد بعضها بعضا ليوفي الكلام حقه من القوة والتركيز حتى يتضح في نفس المخاطب اتضاحه في نفس المتكلم ، ومن هذه الرؤية العظيمة اختياره العطف بالواو في قوله « وبنوه » على « جهلوا » إذ هما جملتان وقعتا متحدتين متناسبتين تناسباً تاما ، وحين آثار حرف « في » عند قوله : « في سجود » أن القوم قد أوقعوا أنفسهم في غلطة مركبة ، ولو كانت بسيطة لسهل علاجها ، وما أروع تصويره ، إنهم وقعوا في ظلام مطبق لم يقدروا على تبصر الأمور في حقائقها ، وعلى هذه الشاكلة من البيان الكريم نرى قوله :

في مقـام الحـق ظلـوا صـامتين   وأبـاحوا الكـذب قـولا مفتـرا

وهو تركيب جيد على سبيل الادعاء بأن قتل حرية الرأي والفكر قد دخل في عمق الجاهلية ، وأن الخلاص منها يحتاج إلى قول غليظ إذ لم يصدر هذا التصور الممقوت إلا من سادة القوم الذين اشتروا من العلماء القول الحق

لجلب حطام الدنيا ، فأصبحوا أهل السوء ، فباعوا بآخرتهم دنياهم ، ومثل هذا الخروج من شيء إلى شيء أحسن من الاقتصار على نوع واحد خصوصا في المقام الذي يتطلب تثبيت المعنى وتقريره ، والنزوع إلى العلم لا يتم إلا إذا كانت قوة الذاكرة والحافظة واعيتين .

وآن لنا الكلام في وجوه من الصور البيانية ذات مَلَح وجلال وعظمة ، ففي تعبيره عن ذل القوم وحقارتهم بالاستعارة في «البطح» تصوير فني لسبيل واسع فيه دقاق الحصى ، وكذلك «البروك» من برك ، قال الليث : البركة ما ولي الأرض من جلد صدر البعير نص العين وما يليه من الصدر واشتقاقه من مبرك البعير ، وقال غيره : البرك كلكل البعير وصدره الذي يدوك به الشيء ، وأنشد :

فأقصصتهم وحكى بركها بهم وأعطت النهب هيان بن بيان[1]

وهو تشبيه للمتواضع الذليل بالناقة التي عجزت عن سيرها ، ومالت بدون رضى إلى الدعة بجامع الذل والمهانة على سبيل الاستعارة ، ومن دقة المجاز لفظ (البطح) للمكان بالوادي المنحط بجامع المهانة بينهما على سبيل التجوز ، ومنه البطح يعني بسطه إذا ألقاه على وجهه ممتداً على وجه الأرض يبطحه بطحاً فانبطح وتبطح فلان إذ اسبطر على وجهه ممتدا على الأرض ، وفي حديث الزكاة بطح لها بقاع ، أي : ألقى صاحبها على وجهه ليبطأه[2] . ويؤثر الكناية : «علماء السوء» للتعبير عن العالم المبتدع الذي يهتك حرمات الله ميلا إلى الطغاة لابتغاء زخارف الدنيا وإيثارها على الآخرة ، ومن سنن العرب في كلامهم أن يجري السوء مجرى الشر الذي هو نقيض الخير ، وهو يؤدي معنى الغم في أمور الدنيا والآخرة ، ومهما يكن الأمر ؛ فإن عبارة «علماء السوء» أصبحت اصطلاحاً منتشراً في هذه البلاد كناية عن العلماء المشركين بالله ، قال

(1) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة «برك».
(2) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة (بطح)

تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ (غافر:٤٥) . ومن جودة تعبيره بالكناية ؛ قوله : «جر ثوب الخيلا» ، يقصد به التعالي على الناس والتباهي بما خوله الله من نعم وآلاء .

ومن القيم الفنيّة العالية ، جودة براعة الاستهلال والاختتام ، ففي الأولى جعل الشاعر قوله :

ويح قومي جهلوا معنى الحيا وأساءوا فيه ختما وابتدا

فاتحة قوية لموضوعه ، ولم يبك الأطلال والديار ، بل هجم موضوعه هجوم من يعتري الدواء والشفاء ، وأنى يأتي التريث ، ولا تقل براعة المقطع عناية وجودة عن سابقتها إذ رأى فيه من أسرار الإيجاز والتركيز خلاصة لما مر به النص من المراحل وخصوصا عجزه الذي يقول فيه :

«غير هذا لا يسمى بالحيا»

فالمقصود أن الذي لا يغنيه هذا ولا ذاك قد تجرد من الإنسانية إلى الحيوانية ، وما أحسنه تصويراً لتصرفهم تصرف البهيمة .

وإذا ألقينا نظرة على المقطع ؛ فإنه يقوي بناؤه البلاغي عندما زاحمه لون آخر من أنواع البديع ، وهو المذهب الكلامي الذي وقع استثناء جميلا في عالم الفن لاعتباره حجة وبرهاناً ، ألا ترى براعة عظيمة حين ختم القصيدة بما بدأها من حسن الصراحة ، ولا غرو فهو سمة بارزة في اتجاهاته ، فكان يحطم بها شر تحطيم المواربة ، والمكابرة في مواعظه ، ولكن هذه الصراحة بريئة من الوقاحة ؛ إذ كانت عادته أن يستعمل الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابل المخاطب ، أو يراسله سرا ، وإذا لم ينجع ذلك عمد إلى الجهر لينا أو قوة حسب ما يقتضي الحال .

وأما الموسيقى ؛ فقد كان بحرها من المديد المحذوف ، وتخللته العلة بالنقص لقصد التخفيف،وراعى الشاعر هذه الظاهرة في الحشو ليناسب المقام، لأنه أدب الخطاب يثري العاطفة ، ويوقظ الوجدان ، ويحرك الانفعال ، ولم

تتخل القافية عن وظيفتها ، فهي مبنية على الألف لإمداد الصوت حتى يبلغ الكلام مبلغه من أداء مهمته وسموه ، تضاف إلى ذلك وجوه من التنغيم في التكرار ، والتشديد ، والطباق التي تقوي عناصر العروض والقافية بخصائصها في النص ليشكل وحدة النسج متناسقة ومترابطة .

وهكذا نهضت القصيدة نهضة قوية لتخدم مصالح الأدب الإسلامي في فكرتها وشكلها ، إشادة بالأخلاق الفاضلة ومحاربة للرذيلة ، وتأخذ حيزاً واسعا من عناصر التفصيل الذي يجلي شبهات القول ، وحق للنص أن يصنع هذه البراعة ، لأن موضوعه قد شغل صاحبه عبر حياته المتعددة ، وعالجه في شتى فنونه الأدبية ، وأحيانا يعقده على أبواب من كتبه ، كما حدث في « الدين النصيحة » بعنوان : (محاربة تقاليد الجاهلية) ، وفي موضع آخر سمّاه : « الأدب النفسي » كما في كتاب « موجز تاريخ نيجيريا » ، وأحيانا أخرى وضعه كتابا كاملا كما وقع في كتاب « الإسلام وتقاليد الجاهلية في نيجيريا » بطبعاته المتعددة ، فلا عجب إذا لُقِّب الإلوري بأديب الأخلاق والقيم[1] .

ومن سلسلة المعارك العادلة التي خاضها في بناء القيم والمثل عظمة مقاومة أولياء أعداء الإسلام وخصومه مساندة للعلم ومؤازرة للعلماء المخلصين المطالبين لحرية الكلام ، والرأي ، ولا تستقيم أمور الأمة أو الجماعة ، أو الطائفة إذا ابتليت بالكبت في رأيها ، وحرم عليها فصل المقال ، ونتيجة ذلك ساند العلماء الذين عارضوا بالشدة إصدار الإقليم الغربي قانون التصريح الرسمي على الوعاظ المسلمين ، فانقسم العلماء إلى مؤيدين ومنكرين ، ونشبت الخصومة والمحاجة بين الطائفتين ، فقام الشاعر يعاتب المتهادنين للحكومة الذين يسعون وراء جلب الحطام ، ويؤازر الفئة المعارضة مشيداً بقادتها ومواقفها الشجاعة ، ويقول :

---

(1) حيث تاب كثير من المعنيين إلى الله وأخلصوا له معاملتهم لرعاياهم ، وكاتبوا الإلوري مثنين على شجاعة قوله ، رواية شفهية منه.

عجبا لعبد صار حرّا سيداً ... يعصي الإله وقلبه لا يخشع

وعليك بالتقوى إذا قدمت في ... دين ودنيا كي تفوز وتنفع

لا يغررنك طيب دار لم يدم ... أبداً ولكن في قريب يقطع

فمن ابتغى مجداً من الإنسان لم ... يربح لدى المولى ولا يتمتع

بشرى لكم يا من يسمى في الورى ... باسم البديع في السعادة يرتع

بشرى لسلمان السلامة إذ به ... روح السماحة بالكفاية يقنع

ومحمد دندي بمعنى مسلم ... ذاك الذي عن رشده لا يرجع

قد زاده مولاه بسطة جسمه ... لزعامة ورئاسة لا يدفع

يا من يسمى بالكمال من الهدى ... ناهيك ربّك من ذليل يرفع

أتباع كفر ليتهم لم يشركُوا ... بالله سرّا في الضلال تجمعوا

لن يفلحُوا بمرادهم وسنفلح ... فالله عدتنا لما نتوقع[1]

والفكرة التي يدور حولها النص منازلة المبادئ الهدامة وتنديد أصحابها وتعييرهم، فقد نبه الشعر نده على الضلال الذي دفعه إليه الزهو حين نسي أصله وهو ذليل فأعزه الله، وضيع فرفعه، ويمضي فيوصيه بالتقوى إذ هي زمام الأمور لمن ولي الناس، لينجو من عقاب الله وعذابه، فلا يجور في الحكم، ولا يغترّ بطيب الدنيا لأنه ينقطع ويزول، وينبئ عن علة الهجاء، وذلك أن المخاطب آثر الخلق على الخالق، واختار العبد على المعبود متعجبا في أمره إذ أمن مكر الله وعصاه بما ابتلاه من النعم لزعامة المسلمين وتدبير أمورهم، وبدلا أن يعدل ويستقيم شكراً لله وثناء عليه جار عنادا وتكبراً، فهل بقي أسلوب في تنبيه العالم الذكي ليتوب إلى الله فيتوب عليه غير هذا الكلام المبسط، والقول اللين؟ لأن تذكير العبد بالاستحياء من الله وخشيته، وهو

---

(1) الإلوري، القصيدة العينية، مكتبة الكاتب الخاصة.

obeikan.com

منشؤه وموجده من العدم ، وكثره بعد القلة يهز في قلب من يشاء الله هزة عنيفة ، فيشرح صدره للإيمان والنور ، وخاصة أولي الأمر من العلماء ، فتنفجر عيونهم بالدموع خوفا من ربهم على الإفراط أو التفريط في حقوق عباد الله زاهدين في ملذات الحياة وزخارفها الزائلة راغبين فيما أعده الله من النعيم المقيم .

ومن الثابت أن منشأ خطيئتهم مهادنة الفساق ، وقد كانوا يتباهون بأمثال أولئك الفجّار ، ويوصون بهم غيرهم للاقتداء ، وعندما لم ينتهوا مال إلى تغليظ القول :

تب يا أخا الشيطان إنك كافر　　لا تشق عن بطن يجوع فيشبع

وهو هجاء مرٌ حين خاطبه بالأمر الصريح بدون مواربة ولا مواراة ، وناداه كناية بقرين الشيطان لشدة الارتباط بينهما في إشاعة الشرور ولأضرار .

فإذا ألقينا نظرة أخرى على البيت ذاته ؛ فإن في طيه أدهى وأمر من جنس اللوم العنيف والعتاب الشديد ، إذ كفّره الشاعر وهو قول يباين ما درج عليه مباينة شديدة ، فقد أبلى بلاء حسنا في مواقف عديدة وطويلة للتوفيق بين العناصر المتناحرة من الفرق الإسلامية فلاسفة ، ومتكلمين ، وصوفية ، وفقهاء ، وبيانيين ، وأدباء حتى غدت مقولاته في مواطن كثيرة تجري مجرى المثل من الدقة والعمق للفصل بينهم ، ولإيقاف سباق التكفير والتفسيق ، وللميل إلى التآلف والاعتذار بين بعضهم وبعض ، وعلى ذلك اتهم بمساندة أولئك الفلاسفة لما يبديه من روح التسامح في معاملتهم سلفاً وخلفاً .

ولا جرم في هذه الغلظة من القول لما عرف من سلوك هؤلاء المنحرفين حيث والوا الكفار ، وانخرطوا في هذه الآفة لا كرها ، وأسوأ من ذلك أنهم انهمكوا في الساسة الماسونيين الذين أسرفوا في إضرار المسلمين في مواطن كثيرة ، ومن بينها أنهم جمدوا نشاط المؤتمر الإسلامي المزمع تكوينه حزبا إسلامياً خالصاً عام ١٩٤٨م ، وأوقفوا ابتعاث أبناء المسلمين إلى البلاد العربية

لتلقي علومهم في جامعاتها ، وحرموا الثقافة العربية والعلوم الإسلامية من مناهج مدارسهم الإقليمية ، ولم يزل هذا الوباء حتى الآن ، وكم من نوابغ من خريجي كبريات الجامعات العربية والإسلامية داخل البلاد وخارجها ، وهم يحملون شهادات عالية وصدت على وجوههم وظائف حكومية في مناطقهم ، ليس لهم جرم إلا أنهم تلقوا علومهم في منابع الحنيفية السمحة ، فضربت عليهم الحكومة الحصار الجائر .

ومن ثمّ لزمت كل مسلم متيقظ محاربة هذه المبادئ الهدامة ، وبيان خطورتها وشرها لئلا يقع المسلمون في أنيابها ، ولا يلهو العلامة أن يشيد بمواقف العلماء الذين صمدوا ، وأن يعدد مناقبهم على منهج المقتدرين في البيان عندما أكد أن أعمالهم الحسنة منبثقة من أسمائهم البديعة على سبيل التظرف الأدبي ، ومنهم أن « سلمان أَكَي » لسلامة ضميره ، وقناعة قلبه ، وأن « محمد دندى » بمعنى مسلم لإقرار إيمانه ، وصفاء سريرته ، وأن « كمال الدين » لكمال هداه الله كفاية عن المذلة .

ثم عاد إلى مهجوّه على سبيل التفصيل بعد الإجمال ، فذكر أنه حقير فشرفه الله بالعلم غير أنه لم يلتزم سلوك العلماء بل أصرّ على الجحود للحقيقة ، واللجوج في إنكارها شقاوة وهوى ، فالموت إذا خير له من الحياة ، ثم بين حجته وسنده في هذا الهجاء والعتاب بما يقول :

أتباع شرك ليتهم لم يشركوا   بالله سرا في الضلال تجمّعوا

والشرك بالله بلا أدنى شك مبدأ قوي في الماسونية ، وهو أكبر الكبائر التي لا تغفر ، وما للإلوري لا يسدد سهامه في نحر هذه الآفة الخبيثة ، وأن يستهدف من اعتنقوها دينا وعقيدة ، لأن هذه العصابة كم قامت بسفك دماء أبرار المؤمنين ، كالشهيد الواعظ الكبير أَبَالر ، والشهيد السياسي الحاج أَدَيْلَبُو ، أليست هذه الماسونية العالمية هي التي أملت على الجنود الجائرين قتل أحمد بلو سردونا ، وزكريا ملَرِي ، وأَكَنْتَوْلا ، وأَوْكَوِتِيبَو ، وأَدَيْ مُلَغُنْ من القادة

الشماليين والغربيين في الانقلاب الغاشم عام ١٩٦٦م ، فلا بأس إذا قام الشاعر يكشف عوراتها ، ويقذفها بوابلات على عقر ديارها .

والحق أن حزب جماعة العمل (A . G) ذو دهاء خطير في قرصنة الناس لما كان يبدي في أول أمره من تعاطف وتراحم للمستضعفين ، كإغاثة الملهوفين ، وإنصاف المظلومين ، وتربية الأجيال على منح دراسية حرّة بأسلوب مراوغ ، فانحاز لموالاته تيار جارف من الشعب من الفقراء والمساكين المزارعين الكادحين حتى العلماء من أمثال الشيخ أحمد صلاتي ، ومريديه سليمان مَيِنْتَوْ ، والشيخ ثنب أَلَنَمُو ، وزميله الحاج بوصيري مَيْ ماغَوْ في إلورن ، والشيخ أحمد المحلي إمام جامع إبادن ، وجمهور من الشبان المسلمين وخاصة متثقفي العربية والإسلامية في مناطقهم حتى في أقصى المناطق الشمالية التي يقول فيه، أحد علمائها :

اتصلت بعض الشخصيات العربية من «شوا» بحزب جماعة العمل ، ولقي هذا الحزب استجابة حارة في الأوساط العربية على الرغم من الاختلافات الكثيرة المتعددة النواحي بين العرب «شُوا» ويوربا ، ولما رأيت كيف تمكنت آراء هذه الجماعة في نفوس العرب عارضتهم بعد أن جمعت زعماءهم في تلك الحركة ، فقلت لهم : ألستم مسلمين؟ قالوا : بلى ، قلت : فهل أباح الإسلام أن تقاتلوا إخوانكم المسلمين؟ فقالوا : لا ، قلت لهم : إن جماعتكم تعتزم شن الحرب ضد حركة المسلمين فلو وافقتموهم في هذا فإنكم ستكفرون بالإسلام[1] .

وعلى ضوء هذا كله فإن العلامة لم يعاد هذا الحزب عداء شخصيا إلا لمناصرة الإسلام وتعاليمه ، لأنه تبادل الاحترام مع قادة أحزاب أخرى لم تقم على محاربة هذا الدين ، وشعائره ، وأمجاده ، وكثيراً ما يذكر إِنَمُدِي أزيكُوَيْ

---

(1) الشيخ صالح إبراهيم ، تاريخ العرب في إمبراطورية مملكة برنو ، ص: ١٧٨.

زعيم «N . C . N . C»[1] لبطولاته في تحرير البلاد ، واشتدت الروابط بينه وبين سردونا إذ كان يعد حزبه «N . P . C» عودة صحيحة لراية جده الشيخ عثمان ، وأنه سيتم على يديه ما عاهد الله عليه من تجديد مكانة آبائه لمواصلة الزحف الإسلامي إلى بقية الجهات المعمورة حتى المحيط الأطلسي ، وعلى هذا الإحساس القوي ساند مساندة كبيرة الرئيس شغري تحت راية «N . P . N» حتى النصر المبين عام ١٩٧٩م ، ونلمس قوله :

نعادي من رجال الأحزاب والحكومات من يعادي الإسلام ، ونوالي من يواليه موالاة خالية من المكر ، والخديعة ، وتربص الدوائر ، ولا يخفى مثل ذلك على اليقظ الواعي إن شاء الله ، « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»[2].

أما أسلوب القصيدة ؛ فإنه قد أدى الغرض الذي سيق لأجله متسلسلا تسلسلا طبيعيا ، ولا غرو فإن الشاعر واعظ هنا قبل كل شيء ، وأنى يأتي التفنن والتصنع إلا ما جاء عفوا ، وإلا فانظر كيف جعل هذه الأبيات جارية مجرى المثل ، تصدق على كثير من المواقف والمناسبات :

ومن ابتغى مجداً من الإنسان لم ... يربح لدى الله ولا يتمتع

إن الغواية والضلالة والهوا ... في برد من بان الرشاد ويخدع

فالموت خير للفتى من دينه ... من أن يوازر كافراً لم يخشع

يدل على عقلية قوية واعية لاستنباط المعاني والأغراض ذات إثارة قوية في نفس المخاطب ، وتغدو آثاراً باقية ، ألا تلاحظ قيمة الكناية التي احتفل البيانيون بها في البيت الثاني تأكيدا لمعنى التلازم والتمكن وعدم المفارقة ، وإن لم يكن فإن مقطع :

لن يفلحوا بمرادهم وسنفلح ... فالله عدتنا لما نتوقع

---

(1) إذ كان أول أمره يمجد أعلام الإسلام ، وعظمة أقدارهم في البلاد.

(2) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص: ٢٧.

يحمل ظلالاً موحية من المعاني الجليلة ، وهي جديرة بالإشارة إليه حين لم يقصد به خبراً ، ومغزى الكلام أجل منه وأروع ، إنما هو دعاء وتضرع إلى المولى لدوام النصر والغلبة ، وهو سمة بارزة عند الأدباء الإسلاميين إذ كانوا لا يعتدون بقوتهم وبسالتهم ، بل يفوضون الأمور إلى الله اعتقادا جازما بأنه بصير بالعباد ، ويدعونه ، ويسألونه ، ويرجون ويوقنون بالإجابة ، وقد امتنّ عليهم ربهم بقبولهم رحمة منه وفضلا ، ألا يروقك منه حين آثر «لن» على «لم» في : «يفلحوا» للتعبير أن خيبة أعدائه في ماضي أمورهم تترتب عليها خسارتهم في مستقبلهم ، والمقدمة على أساسها تنهض النتائج ، فالعذاب الآجل إذًا أقوى من العاجل ، وهو عبرة وذكرى ليفطنوا . ومن المغزى الجليل بناء أسلوب الطباق بين «لن يفلحوا» و«سنفلح» على سبيل المضادة ، لأن الأمور تتعالى أقدارها بمجاورة أضدادها ، ويجعل «فاء» في قوله «فالله عدتنا لما نتوقع» استئنافية ، لأن خصومهم قد تعود حساسياتهم وأحقادهم حمية وعدوانا لإعادة الكرة ، ولا بد أن يعد العدة لهم بما هو أقوى من ذي قبل ، وهو حسن التوكل على الله .

أما الإيقاع الغنائي فالبحر كامل ، وتصرف فيه الشاعر ليلائم موضوعه إذ هو أكرم سباعية وأتمها ، وهي تصلح لاستيعاب فنون عديدة ، وهذا ما أوحى إليه أن ينوع نعوته في مهجوه وممدوحه تنويعا يناسب مقامه ، فعاونه على إكثار الجمل الخبرية على الإنشائية ، وكان البحر أجود فيها ، وأما القافية فعينية ، وهي بحق المناسبة بين موسيقاها وموضوع القصيدة ، والغاية هنا الجهر بالنصح والتنبيه للمخاطب لما كانت دعوته بالسر لم تنفع ، وهذه الأريحية تستدعي من القوافي عينية ، وهي صوت مجهور مخرج من وسط الحلق ، فعند النطق به يندفع الهواء مارًا بالحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين حتى إذا ما وصل إلى وسط الحلق ضاق المجرى ، ولكنه عند مخرجه أقل من ضيقه ، وكما ينتقل الصوت عند خروجه مجهوراً كذلك تقع نبرات المواعظ ، فتعظم فاعلية في الأسماع ، وقوة في القلوب .

غير أن طول الاستطراد إلى موضوع غير أصلي قد ينقص الشعر من رونقه ، ويخلق حائلا منيعا بين الوحدات الفكرية حيث بدأ يعاتب مهجوه ، ولم يلبث أن خرج إلى مناقب أصحابه ، وأطال الكلام ، ثم عاد إلى غرضه الأصلي ، وهو اتجاه كان سائدا على قصائد الديوان ، وترجع علته إلى غزارة مادته ، وسعة ثقافته ، وثراء فكره ، ليس في ذات الديوان وحده ، بل يعم جميع فنونه وهو موقف يعلل سره الجاحظ أبو عذره :

مثل كتابنا هذا لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مرّ الحق ، وصعوبة الجدّ ، وثقل المثونة ، وحلية الوقار ، لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق من ثمرته واستشعر قلبه من عزه ونال سروره على حسب ما يورد الطول من الكد والكثرة من السآمة ، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة[1].

ومن المؤكد أن الإلوري كان يميل إلى هذا الاتجاه ، ولا خلاف فقد جعل الجاحظ وأمثاله من الموسوعيين قدوته ، وشاركني في هذا زميلي الأستاذ أحمد الغزالي المختار ، قائلا : « إن ذلك استطراد جميل يهب الكلام مغزى عظيما على سبيل التخيّل ، لأن الضياء يزداد بهاء إذا جاوره الظلام »[2].

ولعله يستنبط هذا التوجيه العظيم من منطلق الأغراض الجليلة التي يسعى وراء تحريرها البيانيون من فحوى باب الطباق والمقابلة إذا فعل ذلك ، فقد استند إلى حجة قوية في عالم الفن والبيان ، وكم له جزيل الاعتراف والامتنان على حسن المدارسة ، وكثرة المدارسة تؤدي إلى العلم كما قال ابن سلام الجمحي[3].

* * *

---

(1) الجاحظ ، الحيوان ٤/٦٩.

(2) حوار دار بيني وبينه يوم الجمعة بصكتو عام ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

(3) ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ص: ٧.